مكتبة نوميديا

محمود السامرائي

مَنَازِلُ اللَوعَة

رواية

عصير الكتب

مَنَازِلُ اللوعَة

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولي: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 23870/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-324-6
- العنوان: منازل اللوعة
- تدقيق لغوي: أحمد عطية
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

محمود السامرائي

مَنَازِلُ اللوعَة

رواية

عصير الكتب

إلى عبد الرزاق الربيعي.

مَرَّةً كنتُ طفلًا
وأمسَكتُ كفَّ أبي
فارتَجَفْتُ لِفَرْطِ الأخاديدِ فيها
وسَحَبْتُ يَدي
قالَ: يا وَلَدي
أتَمَنَّى لِكَفِّكَ أنَّ الجِراحاتِ لا تَعتَريها
وَمَضى، وَمَضَيتْ..
نِصْفُ حَيٍّ أنا، وأبي نِصْفُ مَيْتْ

عبد الرزاق عبد الواحد، قصيدة أختام الدم

-1-

منازل منطفئة

لا يتذكر أبي، فرج الله بن أمين السقاء، أشياء كثيرة عن حياته الأولى وبيئته، صورة المحو هي المهيمنة على ذاكرته وروحه، خاصَّة أبوه، أمين السقاء، الذي يدور على البيوت الطينية المتراصفة في الأرض الجرداء الممتدة وهو يحمل وعاء الماء الكبير المصنوع من الجلد والذي يلفه حول ظهره مقابل دراهم معدودة، يطرق الأبواب قبل ارتفاع الشمس برتابةٍ معلومة، يعرف سكان البيوت الذين لا يصلهم الماء وقع يده، يدفعون الدراهم بإكراهٍ، فعلى فقرهم عليهم أن يدفعوا حتى يشربوا، قبيل الغروب يعودُ متهالكًا، هذه الصورة الوحيدة التي يحفظها لأبيه على رماديتها. لن يفخر بأبيه كثيرًا، فهو نشأ وحيدًا، إلا أن الأستاذ نوري سيقنعه أنه سيكون ذا شيء عظيم! كيف ذا وهو ابن سقاءٍ أفنى عمره في حمل الماء فأضناه التعب ومات وبعد لم يتجاوز الأربعين؟ يضحك الأستاذ نوري، يقول له أنت مثل المتنبي، شاعر العرب الأعظم، كان ابن سقاء مغمور، لا يذكر منه شيئًا، مع الأيام صارت

حكاية المتنبي التي وعاها حجةً لذكر أبيه على نحو لا يخجل منه، أما ما يذكره من صورة الأب وصورة الطفولة الأولى فقليل، لعل أشهرها مشهد أبيه وهو يحاول قتل أمه! تحاصره تلك الصورة بطريقة مفزعة، يتألم، وكثيرًا ما انسابت الدموع على خديه وهو يستحضره. كان يجلس في باب البيت عندما دخل أبيه مسرعًا، لم يعبأ كثيرًا بدخوله، فهو لم يكن يهتم بوجوده، بقيَ يرمق الشمس وهي تجنح نحو الغروب وما تثير في نفسه من متعةٍ ولذةٍ، سمع أصواتًا تتفجر، دخل فرأى ما لن ينساه، أبوه بضخامته المعهودة كأنه سدٌّ يمنع الماء من التمرد، يحمل أمه بيد واحدةٍ من رقبتها، وارتفع ثوبها حتى بان فخذها –يعتقد أنه المرة الأولى والأخيرة التي يرى هذه المنطقة من جسد أمه– وجهها استحال حزنًا ومرارةً ولا تقوى على الصراخ، لكنها أشارت بعينيها إليه، استدار الأب فرأى فرج بلحظة صدمة لا تفسر، ترك الأم تهبط على الأرض دفعة واحدة فارتجت عظامها ثم بكت، لم ينبس الطفل فرج، سال ماؤه من تحته وهو ساهم ينظر إلى أمه.

في المساء حاول الوالدان أن يتناسيا الحادثة، لكنها حفرت في نفسيةِ فرج أخاديد وثقوبًا وتركت وشمًا لن يزول، اجتمع الثلاثة على العشاء، صحن شوربة العدس وبطاطا مقلية، تفحص الوجوه، أبوه يأكل من دون اهتمام، الأمُ تزدري اللقيمات بملٍ ووجهها استحال ظلمةً بفعل الدموع والكرب الذي ملأها. لم يأكل شيئًا، انتبهت الأم التي حرضته على الأكل. كان يفهم أكثر مما ينبغي، يستوعب أكبر قدرٍ مما جرى. بعد العشاء وتخييم الصمت نادته أمه، لينام، توسد فرشته الصغيرة وأغمض عينيه، لم يأتِه نومًا، توسل الهجوع لكن أبى أن يأتيه، انتظر حتى أطفأوا الفانوس ثم فتح عينيه واستدعى المشهد. على بعد مترين فرشة الأب والأم، سمع حفيف الفراش، الأب يمد يده لكن الأم تنفر، ثم ببطء قالت: «غدًا عند أهلي أنا».

عبَّ نفسًا عميقًا وقال: «لمَ؟».

قالت بتصميم: «أنت تعرف لماذا، هذه المرة سلمنا، في المرة القادمة ستقتل أحدنا!».

لا يعلم لماذا صمت أبوه ولم ينشب عراك كالعادة، ضجر فرج وهو يعلم أن أمه ستأخذه غدًا من الرطبة إلى كبيسة، وما في هذه الرحلة من مشقةٍ تقطع الأنفاس، يقفون على الشارع العام، تصهر الشمس أدمغتهم حتى يأتي الأتوبيس، ثم يأتي الأتوبيس لتبدأ رحلة التعاسة الحقيقية، سبع ساعات والمحرك يئن في الرأس والأجساد تستحيل أشباحًا مصفرة، وبعد هذا العناء والوصول سرعان ما يأتي أمين بعد يومين أو ثلاث، يجلس في ديوان أبيها، يتهامسُ معه ساعة من الزمن ثم يأتي إلى ابنته ويقول كلمته التي لا تناقش: «حضري غراضك بعد الغدا»، وما هي إلا ساعة حتى تصب أمها منسف التمن وعليه دجاجة وتضعه أمام الرجلين، يلهم أمين مع الجد من دون حكايات طويلة، السقاية والأحوال والأعمام والمسافرين إلى الشام والمصاهرات التي لا تنتهي. يذهب فرج إلى أبيه بعد أن يغسل يديه ويشرع في شرب الشاي، يقبله ثم يهمس في أذنه: «قل لماما يلا»، يذهب إليها فيراها على أهبة الاستعداد، لقد ملَّ فرج هذه الطريقة، حتى إنه وهو يزحف نحو السادسة من عمره سأل أمه: «بابا يكرهنا؟».

امتلأ الفضاء صمتًا موحشًا، كررها، فقالت له: «لم تقول هذا؟».

- أبي يضربك.

- لا، يحبُّنا.

- لكنَّه يتمنى موتك.

- ليس صحيحًا.

يعرفها، لا تطيل الكلام معه، صحيح أن الأسى يتفجر في قلبها لكنه يبقى زوجها، الذي يكد الليل مع النهار.

صبيحة اليوم التالي وعندما استيقظ فرج كانت أمه قد جهزت أغراضها، ولم يبقَ إلا هو، قام والنوم في عينيه، نزعت عنه ملابسه عنوة وسحبته نحو ماء الإسالة في الحوش، صوبنت رأسه وصدمته بالماء، ثم ألبسته دشداشة العيد التي اشتراها له جده وعد الله من كبيسة قبل ليلة العيد، حملت أمه زوادة الطعام والحقيبة التي فيها الملابس ومشت نحو الباب، قبل أن تفتحه أشرع على مصراعيه، الرجال الذين تركوا أعمالهم ومخادعهم وراحتهم وتفرغوا لبيت السقاء لأول مرة متجمهرين تسبقهم أم عليم تولول.

سألت أمه: «خير أم عليم؟».

- الله يرحمك... عين ولم تصلِّ على النبي!

ثم تهاوت على رأس فرج باكية ومقبلة وقبل أن تسألها تدافع الرجال موحدين وهم يحملون جسد أمين السقاء بضخامته والدماء تسيل من رأسه.

-2-

استبداد الأحزان

بلدةٌ غارقة في العتمة، أو قرية تهجع عند الغروب وتخلد إلى النوم والعبادة والحكايات، لا تهم الأسماء، ما يذكره أبي عن كبيسة أنها صغيرة جدًّا، قد لا تتجاوز المئة بيت، تتراصفُ كل عشرين في استقامةٍ، يتزاوجون، ويولدون، والبيت الواحد يتضاعف بسرعة مجنونة، فهم لا يعرفون من الحياة سوى العمل القاسي في الأرض الصلدة التي تعاند قوتهم طوال السنة، والعبادة، والتكاثر. أما في الليل فهي جامدة، كأن لم تسمع نطقًا، ولم يعد يسمع فرج صوتًا إلا دعاء جده الذي اعتاد أن يسمعه في الهزيع الأخير من الليل. قام متسللًا، وترك أمه تغط في نومها، فتح الستارة التي تنوب عن بابٍ، فالغرفة التي يقطنون بها هي غرفة المؤونة، تحولت إلى غرفة فرج وأمه بشكل مؤقت، رأى جده بجسده النحيل في الصالون يقف على سجادته ويرفع يده بضراعة وخضوع وتوسل ويتمتم: «إلهنا، قُدنا بزمامِ طاعتك إلى كريم حضرتك، واعصمنا من كيد كلِّ كائد لنا من أجلك، وامْحُ أسماءنا من ديوان

غيرك، واكتبنا في المنيبين إليك، الذاكرين لك، المفتخرين بك، المبتهجين بقربك، المغمورين بعطائك، المذكورين بحضرتك، المتوَّجين بتاج صفوتك، المخصوصين بالاطِّلاع على إسرارك وإعلانك، المطمئنين على بساط خبرك وعيانك، يا ذا الجلال والإكرام».

أكمل الجد صلاته ثم قال من دون استدارة: «*تعال يا فرج*»! تعجبَ الصبيُّ من قدرة العجوز على الإدراك فهو لم يصدر صوتًا، مشى نحوه وجلس أمامه على السجادة، مسحه على رأسه وهو يردد: «*ما شاء الله... كبرت.. يجب أن تتعلم القرآن.. ماذا تحب أن تصبح؟*» لم يجد جوابًا، كان الصبيُّ بعدُ في الصدمة الأولى، صحيح أنه لم يدرك تمام الإدراك لحظة هبوط أم عليم على رأسه ثم امتلاء البيت الطيني الصغير بالرجال والنساء الباكيات والأحزان، لكنها خلفت إحساسًا بصدمةٍ غامضةٍ وطاغية، فسرها قدوم جده وعد الله إلى مسكنهم، ثم حملهم بعد أيَّام إلى هنا. عقلُهُ مملوء ببكاء أمه، جزعها، ثم ذبولها وغرقها في السواد، نما هذا الشعور الجارف، غربة، خواء، غاب الرجل الضخم الذي حاول خنق أمه، ومن بعده تغير كل شيء، لم يمت أمين في تلك اللحظة بالضبط، هكذا خيل لهادية، حتى عندما رأت الرجال يحملون الجسد على نحو فجائعي مشحون بالابتهالات والأدعية ثم يغيبون أول منعطف ومعها النسوة المتفجعات لم تتخيل أن أمين السقاء ذا العضل المفتول، الذي يحمل الماء في وقت تلجأ الأجساد من الشمس متوسلة قد أدركه الفناء. اللحظة التي شعرت فيها أن الموت أحكم قبضته على البيت هي مساء اليوم السابع، عندما ذهبت أم أمين إلى بيتها على أن تعود في اليوم التالي وأغلقت الباب فلم ترَ سوى فرج ينظر إليها بعينين دهشتين، كان حزنًا، لكنه لم يتمدد بعد ويملأ الأرجاء، كان طوفانًا، لكنه لم يدمر كل شيء، تحتاج إلى أن تلوك صدمتها وتستوعب ما حصل، أن تسترجع فتفهم، لكن عيني فرج كانت تقول أشياء، ترامقا لوقتٍ قصير ثم بكى، أخاف الصمت الذي شعرتَ أنه عمَّ الوجود، دقائق فقط، غرق العالم في حدادٍ على أمين، فالأيام السبعة لم تكن سوى أحزان عابرة، بددتها

الولائم التي نصبت، القهوة المرة التي دارت، الآيات التي تتلى، الأحضان التي تتلقفها، لم يمنحوها فرصة للبكاء، ففي اللحظة التي عاد الرجال من الجنازة كان البيتُ الصغير تحول إلى خلية نحلٍ، نساء تدفقن ولم تعد تعرف صلة القرابة حتى، وجوه باكية ثم مشغولة، فعندما حُمل النعشُ أزهقت أرواح سبعة خراف لم يكن السقاء يحلم بأكل نتفٍ منها، وصل اللحم ثم بدأن الطبخ، حتى أمه بدرية الجسام تركت البكاء وانشغلت بطبخ الخراف: «*لازم نرفع الرأس ونترك كل الناس تحكي عن عزا أمين!*». ثم بدأت في تهيئة اللحم، النسوة اللاتي أبصرن بدرية تجوب بتلك الهمة رددن: «مسكينة، انهبلت العجوز... لم تستوعب بعد»، والحق أن بدرية الجسام لم يعرف أحد كنه القوة، صحيح أنها لم تدخل عرسًا بعد موته أو فرحًا، ولم تخلع السواد أو تترك التدخين، لكنها بدت قوية.

فيما بعد سيسأل أبي: «لماذا يأسرك الناس بتلك النظرة الكئيبة لحظة اليتم فتنزلق في قاعٍ رهيب من الأسئلة والإدراك الغامض؟».

أخذ الجد يردد على فرج جملة من الأسماء التي يريدها أن يكون مثله: الأستاذ، خالك محمد، ابن عمي مصطفى، وفرج يجهل تلك الأسماء، يضحك الجد، تشارف الشمس على الشروق، يأمره بالوضوء، فلا يفهم، يتوضأ أمامه ويأمره أن يفعل مثله، ثم يشرع في تعليمه القرآن، قصار السور، واستمر من الشروق حتى السابعة من دون أن يعي الطفلُ شيئًا، لقد وجد في التلقين صعوبةً لم يجربها من قبل، ورأى نفسه يستسلم لعالمٍ مجهولٍ لكنه مليء، شخصياتٌ تتابع، أحداث، استيقظت أم فرج، هادية، وأتت الصالون خائفة: «أنت هنا؟ لمَ قمت من فراشك؟».

ضحك أبوها: «جاء عند جده، ومن الآن فرج سيبدأ بحفظ كتاب الله».

- كما تشاء يا أبي، لا تتعب جدك.

وضعت إبريق الشاي، وقلت البيض، ثم وضعت في الصفيحة الزبد والبيض والشاي، وأتت به على سجادة أبيها، تبعتها الأم من غرفتها، وعلى الرغم من

أن هادية لم يمضِ على قدومها سوى أسبوعين فإن تغييرًا حصل في حياة الشيخ النحيل وزوجه، حملت هادية عن أمها أعباء البيت، على صغره لكنه لا يخلو من الضيوف الذي يستلزم بدوره الطبخ والعمل، خاصة وأن العجوز مضياف يأنس بمن يطأ داره، مع ولدها جعلا البيت يضج بالحياة، وإن كانت حياة متشبعة باللوعة والأوجاع، إلا أن الرجل وزوجه مطمئنان أن الحزن يبدأ جامحًا ثم يروض ويتحول إلى ذكرى تومض في الذاكرة بين الفينة والأخرى، *«والبنت بعدها قمر وهناك من يتمناها»*، هكذا تمتمت أمها في أذن الشيخ، فقال وهو ساهم: *«يفعل الله ما يشاء»*.

قعدت زوجة الشيخ أمامه وهو يطعم الصبي وهادية تصبُ الشاي: «متى تذهب إلى المختار؟».

- ولمَ؟
- تتصل بمحمد، وترى متى يأتي.
- ألم تتصلي به قبل يومين؟
- بلى؟
- ماذا قال؟
- يزعم أنه اليوم سيأتي.

فقالت هادية: «إجازة؟».

- أي، ويريد أن يأتي لتعزيتك يا نور العين، العادة لا يأتي إلا كل ثلاثة أشهر.

نظرت إلى الشيخ: «استعجل... حتى نرتب الغداء».

همَّ بالخروج وهو يردد: «وهل محمد غريب؟».

-3-

المختار يحلم من جديد

لم يكن لدى المختار -الذي يتربع في مكتبه، وهو عبارة عن دكان صغيرٍ بناه قرب بيته ووضع فيه طاولة وبعض المقاعد- تلك الأيَّام من همٍّ سوى فلسطين وقضيتها الأزلية ووعود العرب بالنصر المؤزر، ومن يراه على حاله الذي رآه الشيخ سيظنُّ المختار أبا حبيب عضو سلكٍ عسكريٍّ أو قائد، لا مجرد جنديٍّ منسيٍّ فُطر على حب الملك فيصل الثاني، فلما شاءت الأقدار أن يقتحم قصر الرحاب في ثورة 14 (تموز) 1958م، ويرى مصرع الملك أمامه وعائلته رمى بندقيته وفر هاربًا إلى كبيسة، ومنذ ذلك اليوم لم يصل بغداد، يكرر أبو حبيب حسرته ولوعته، وكيف أن عبد الستار العبوسي ذلك «المخنث» فتح الرصاص على الملك وعائلته وتفجر الدم في الحدائق الغناء مثل نافورة، لم يستوعب المختار، رمى بندقيته وفر هاربًا كالمجانين، طوفان البشر التي أحاطت بالقصر شامتة وموتورة لم تمنعه من أن يصرخ باكيًا، في بعض الأحيان يكرر التفاصيل بصورة مختلفة ويدعي أن الملك وقف أمامه، وهو يرفع البندقية بوجهه، ارتعشت أطرافه فأمره الضابط أن يطلق النار، تردد، جبن، وهذه اللحظة المشحونة بالقلق يعده المختار شجاعة استثنائية، عصى الأمر، رمى

البندقة أرضًا، أغضب الضابط، ابتسم الملك فيصل له، ويقول إن جدته قالت له «تعيش يا بطل»، ثم ينفعل المختار ويهتف بالعجوز: «يا أبو هادية، هؤلاء ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، هؤلاء الهاشميين، لمَ نقتلهم، حرام!».

ويمط الكلمة الأخيرة بأسىً ومرارة.

تفحص هذه المرة الشيخ والصبيَّ: «من الجميل؟».

- فرج الله ابن حياة أمين السقاء، ابن أختي.

طرق الاسم في أذنه ذكرى حانية، تجاوزها وانحنى نحوه مقبلًا ومتأسيًا.

- نريد نخابر على محمد.

- حاضر.

دق على الدكتور محمد بينما المختار بقي يمسح على رأس فرج، وبعد الانتهاء ناول فرج دينارًا.

قال الشيخ: «دينار!».

- لا يغلى عليه.

لم يكن المختار بطوله الفارع وبشرته التي تميل نحو السمار اللامع بخيلًا على أي حال، رغم أن هذه الصفة ألصقت به، لكن كرمه يتحدد بحدود يراها هو، فيمسك في حالٍ وينفق في أحوال أخرى، فإن فرج أخذ منه مأخذًا آخر، لم يفطن أبو هادية أوَّل الأمر، لكن وهو يذرع الطريق عائدًا تفكر، ثم شكك في نوايا المختار كما ينبغي لأيِّ عاقل، ألم يطلب أبو حبيب يد هادية للزواج عندما علم بتقدم أمين لخطبتها؟ والآن يجد الفرصة مناسبة للتقرب منهم، ولمَ لا؟ أبو حبيب ما زال في ريعان شبابه، دخل الأربعين من شهور، وهو على مستوى من الثقافة وإلمام بقضايا الأمة وتحولاتها ما لا يملكه أحد في المعمورة كلها، ولولا صدمة مقتل الملك لكان الآن ذا منصب مرموقٍ في بغداد، ربما قاد انقلابًا من الانقلابات المتتابعة، شرقت الأفكار بالعجوز حتى خُيل إليه أن هادية حمل ثقيل عليه، تعوذ من الشيطان وفكر بالأجر والثواب الذي سيناله بهذه الأرملة وولدها اليتيم، وجد نفسه عند باب البيت.

-4-

زعماء يكذبون

سرت في الوجوه مسحةُ أملٍ وهم يرون الدكتور محمد يهبط من القافلة المتجهة إلى الأردن ويسير نحو بيوتات البلدة، عانقه العجوز ومعه فرج، لكن المفاجأة أن الدكتور لم يكن وحده، تبعته زوجه غصون حمدي النذير، التي يرونها لأوَّل مرةٍ، قبلت يد العجوز ثم الصبي وانطلقوا راجلين نحو البيوتات المتلاصقة في وسط الفضاء الفسيح، كان الغروب قد زحف عندما دخلوا البيت، لم تتبين أم الدكتور وجه غصون أول الأمر، فلما رأتها تبسمت ابتسامة خفيفة تبعها ترحاب جاف، والموقف لم يكن ليسمح بلومٍ أو عتاب. حضنَ هادية وجلس يستمع إلى دموعها التي تدافعت مثل بركانٍ، ووجهها الذي تغير ليكون أحمر قانيًا، سردت عليه كعادة النساء أيَّام العزاء المأساة، كيف خرج صباحًا غضبان منها -لم تقل لهم إنه خنقها قبل يوم وعلى إثرها زعلت- ثم عاد ضحى محمولًا على الأكتاف، كان كعادته على الفرات يحمل دلال الماء، وكان النبع الذي يستسقي منه صخريٌّ شديد الوعورة، صعد على

الصخور وانحنى مادًّا ذراعيه إلى الماء، انزلقت قدماه ثم هوى على رأسه ملتطمًا بالصخور الناتئة، تفجر دمه متدفقًا إلى النهر ومحيل المجرى إلى احمرار، هكذا ببساطة انتهت حكاية أمين، قصيرة، لا تحمل تفاصيل كثيرة على عادة الناس إذا رووا خبر مقتل أحدٍ ما، أما محاولته خنقها فقد انطوت، وظنت هادية أن الحكاية ماتت إلى الأبد، لم تفطن إلى أن فرج قد استوعب الحكاية وامتلأ بها، بعض حكايات الطفولة لا تموت، تنمو مثل شجرٍ لا يعرف الجفاف يتطاول ويترك في القلب جروحًا.

نظر الدكتور إلى فرج، مسح على رأسه كالعادة بينما أمه انشغلت بتجهيز العشاء قبل أن يأتي الضيوف، وهم أهل البلدة الذين اعتادوا زيارة الدكتور بعد كل أوبة متباعدة. ذبحت أم محمد الخروف منذ عودة العجوز من عند المختار، وقسمته إلى أجزاء، طبخت جزءين وتصدق بالجزءين الآخرين لفقراء البلدة، قبيل صلاة العشاء وضعت العشاء، أم هادية لم تحرك بصرها عن غصون، لقد بدت جميلةً إلى حدٍّ لا ينكر، لكن في القلب غصة، ونقمة، ليس في نفسية الأم التي طار حزن ابنتها من قلبها وتفردت زوجة الابن لهذه الساعات، بل نفسية البلدة كلها، محمد بن الشيخ وعد الله يتنكر لبلدته وأصله ويتزوج من سامرائية بعيدة، ألم يكفهم أن بغداد سرقت منهم ولدهم النبيه حتى تكمله هذه السيدة الآتية من مدينة أقل ما يقال عنها إنها منسية متنائية؟ وليت أهلها راضون بما أنعم الله عليهم، بل هم مع ذلك كله متضجرون، يطلبون مهرًا غاليًا. قطع أفكار الأم وسط الظلام الذي خيم صوت الشيخ وهو يسأل: «أي ابنتي؟ كيف أهلك؟».

أجابت بصوت نائم في الأعماق: «الحمد لله، بخير، يسألون عنكم، ويسألونكم زيارة قريبة».

- إن شاء الله، أنا زرت سامراء قبل عشرين سنة أعتقد، زرنا فيها شيخ سليم الحسيني عليه رحمة الله، بركة أهل العراق وقدوتهم، كنا نسمع

بما له من كرامات، لكنه لم يكن يخرج من مدينته، لم يسِحْ في الأرض فيصل إلينا، كان مكتفيًا بجوار آل البيت عليهم الرضوان.

سهَّم الشيخ وهو يترك اللقمة التي بين يديه، كأنه سافر إلى عوالم أخرى، سأله محمد وهو يغمز زوجته: «يعني تحب السوامرة؟».

- أحب أهل الله في كل مكان، وآل البيت، هم سبيلنا.

قام يغسل يديه وينتظر ضيوفه الذين سيملؤون ديوانه، أضرمت أم محمد النار، وضع دكة القهوة، أكد العجوز على أن تترك القهوة سوداء تتطفح بالمرارة، كما القلب، مرارة تليق بالقلب المترع بالأحزان. نفس عن كربهم زيارة المختار ومن تبعه من أهل البلدة، أبو علي، أبو مصطفى، الحاج حيدر، أبو إسماعيل، مخلف النزار، حمزة الكواء، منير القصاب، والمختار. والدكتور محمد يمثل لهم لونًا من ألوان الفخر والاعتزاز، فقد كان معهم، ينهل من الفرات ويركض في الأزقة المتربة ويقتحم الحقل غير آبهٍ بلعنات جدته لميعة التي جلبت على البخل وماتت بعد أن أتمت المئة، تصرخ وتزبد وتلعن، فإذا اختفى بين الأشجار بقيت تصرخ حتى يأتي أبوه: «*وعد، لماذا خلفت العارات*»؟ تسأله وتطلب جوابًا، ولأن أباه كان ورعًا منذ نعومته لم يرد على شتيمة أمه، بل قال: «*قدرنا، أنعترض على خلق الله*؟» فقالت وهي تعضُ على شفتيها: «*بل اعترض على تربية النسوان، وسفة، لم تبقَ رجال*»! يأنس بعصبيتها، يؤكد لها أنه سيعيد تربية الولد، على حسب الأصول، يذرع بستان الجدة وينادي عليه، يخرج مباشرة، يغمز الأب ويجره لجدته التي تمسكه من أذنيه وتضغط عليهما بقوة: «*كن مثل أبيك*!»، ثم تبتهل وتدعو على التربية. إلا أن محمدًا كان جديرًا باهتمام البلدة كلها، فهو أول من اجتاز الثانوية عندما سافر إلى الفلوجة، وكان الثاني على العراق، وكرمه عبد الكريم قاسم شخصيًّا، ودخل كلية الطب في بريطانيا، أحداثٌ جسام صنعها محمد، فخرٌ، كلها يجعل البلدة تسير بخيلاء، إلا زواجه من غصون، غصةٌ لم يتجاوزوا عتبتها، «مشكلته بعيد، في بغداد، لا نعرف عنه شيئًا»، فضلًا عن ذلك كله

له إلمام بالحالة العربية على نحو يدهشهم، فهو يعرف الزعماء والرؤساء والملوك والحروب التي تقوم والأزمات الاقتصادية معرفة لا يضاهيه أحد، حتى المختار يصمت عندما يأتي الدكتور محمد، إنه يعجزه، صحيح أن المختار يعرف كل شيء تقريبًا عن العائلة الملكية وسلالتها وتاريخها لكنه يجهل بعد تاريخ الشؤم ذلك، منذ أن عاد لائذًا وخائفًا دخل في صدمة لم يفق منها، لكن محمدًا يتنبأ بالهزائم العربية المتتابعة.

- والله يا أبا حبيب، هذا الزعيم الذي تحكي عنه زوبعة فنجان وستعرفون أن العرب كلهم يعيشون سبات، اصحوا يا أمة ضحكت من جهلها الأمم... فلسطين لن تعود بالشعارات!
- لكنه زعيم أمة، تتطلع إليه الوجوه وتهتف باسمه الملايين، يقولون له قل لنا اشربوا البحر، كلوا عدونا وعدو الدين.

فقال محمد وفي لهجته شعور خيبة: «وهل تصدق هذا؟».

شعر المختار أنه بالغ في تقديس هذا الزعيم الذي يسمع عنه في الإذاعة، وأن محمد سيعده ساذجًا، مما يوشمه بنظرة شاملة، تدارك: «أعني على أيام الملك كان للخطاب الحربي قيمته!».

فقال الحاج حيدر وقد كان ينظر إليه مبحلقًا وفمه نصف مفتوح وأسنانه الصفراء المنخورة بالسوس بائنة: «دكتور، خطاب الزعيم والقائد كذب؟».

- ليس كذبًا، إنما ظاهرة، أخذت أكبر من حجمها...

وبينما يشتعل الجدل ويطوح الدكتور بهم ويستعرض أسماء وألقابًا وحروبًا وتواريخ لا يعرفونها يصمت الجميع، وتحولوا إلى مستمعين، إلا المختار، فقد سدد نظره إلى الباب الفاصل بين الديوان وباطن البيت، كانت نظرته تروم اختراق الحُجب، غارقة في التفكير.

-5-

الكتابة ضد النسيان

ربما الخاطر الأول الذي دفعني إلى الكتابة عن أبي هو إيماني بأنَّ الأشياء التي لا نكتبها لا تبلغ مداها، تظل أشياء عاشها مع عائلته التي أخذت تصغر مع الزمن وتتباعد في المدن، ثم تنسل نحو النسيان، فالكتابة تقوم بمهمة مقاومة النسيان ومحاولة البقاء، حتى لتبدو الشيخوخة فعلًا تراتبيًّا لا يؤثر على جوهر الحكاية.

نامت غصون ليلتها على قلقٍ وشعور جارف بأنها خارج العائلة، هنا، كل شيء مستغلق ومختص بسلالة عائلية كأن الكون لا يتسع لسواهم، صحيح أنها تمتلئ بجو كئيب ضبابي وهو مبرر في بيت ينام على موت، لكن الأحزان نوع من الوئام والوثاق الذي يعبر المسميات، فكيف استطاعت هذه العائلة أن تعتصم حتى في الحزن منها؟ النظرات الحارقة التي توجهها الأم لن تخطئها، تعرف مغزاها، تذكر عزوفها على حضور الزفاف، أو المباركة على الأقل، وكيف أن زوجها غرق في همٍ وقلق، تُرى هل يعقل أن رحمها الذي عجز

عن الحبل هو بسبب أهله؟ ربما تعويذاتٌ، سخروا سحرة، أو عين أصابتهما حتى جف رحمها مثل أرض بورٍ ولن يدركها مطرٌ. تسلطن هذا الخاطر، رغم قناعتها العلمية التي تعتمد على العلم أولًا، شأنها شأن زوجها الذي ترك العادات والتقاليد خلفه وقصد سامراء طالبًا. تشعر بالامتلاء به، والاستغناء عن غيره، تملك العالم أجمع. ثم استسلمت إلى فكرة أنهما سيبقيان يومين فقط، ثم تنتهي هذه الخواطر الطاحنة، لا بأس بقليل من الكدر.

صبيحة اليوم التالي قامت إلى المطبخ، رأت جرار العسل وهادية تسكبه، ابتسمت بفتور لها: «صباح النشاط، كيف كانت ليلتك؟».

- لم أنم إلا وجه الصبح، البق كثير ويأكلني.
- بنات بغداد بعد، دلال.
- أنا من سامراء، ليست أفضل حال من هنا.
- يقولون حلوة.
- عندنا الملوية فقط، شاهقة وعندما ترتقيها تشعرين أنك تطلين على الدنيا، تتصاغر الأشياء جنبها.
- يا سلام.

ثم اقتربت هادية وبصوت خفيض: «لا تزعلي من أمي أو أي امرأة، أنا حتى بفاتحة زوجي يلومون أمي لأنها زوجتني من رجلٍ بعيدة أرضه وفقير».

- صح، كيف زوجوك؟
- أمين الله يرحمه ابن عمتي بدرية أيضًا، وكان يتمتع بسيرة عاطرة، والبنت ماذا تريد؟ ستر، ما دام هذا الشرط قد تحقق وهو من أقاربي فلا بأس عليَّ، الزواج ناجح.

وضعوا الإفطار، صبت هادية الشاي والجد يلاعبُ فرج: «هادية، ولدك أحس أنه فهيم، له مستقبل مثل خاله، بدأ يستجيب ويحفظ النص القرآني، لأن هذا القرآن «فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصلُ

ليس بالهزلِ، من تركه من جبَّارٍ قصمه اللهُ، ومن ابتغى الهدَى في غيرِه أضلَّه اللهُ، وهو حبلُ اللهِ المتينُ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تختلفُ به الآراءُ، ولا تلتبس به الألسُنُ، ولا يَخلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يَشبعُ منه العلماءُ، من قال به صدَق، ومن حكم به عدَل، ومن عمِل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيمٍ»، وخالك محمد اتبع كتاب الله، كان يحفظ، كم جزءًا حفظت يا محمد؟».

- خمسة عشر.. كانت جدتي لميعة الله يرحمها تقول لي أنت ملعون، لأن حفظي لم يكن متقنًا.

فترت الثغور على ابتسامة، فقال أبو محمد: «الله يرحمها، لم يكن يعجبها العجب».

تضاحكوا بهدوء رتيب. الوالدان يطرقان كل بابٍ، لعل الكرب يطمر وينتهي.

-6-

المحنة «1»

في النهاية يمكن للجميع أن يلبثوا دون والدين مثل أبي، يتخلون عن الدفء ويتشردون في الحياة ركضًا وراء الرغيف على نحو مبهم متلبسٍ، دفعتْ أبي في بعض الليالي يهتف: «*لماذا أنا يا الله*»؟ وفي سنوات الرخاء من حياته، بعد أربعين سنةٍ تقريبًا من هذه الأيَّام، سيستسلم لإرادة القدر الرهيبة.

بعد يومين من مغادرة الدكتور محمد وزوجه كبيسة وما ترك مغادرتهم من غصةٍ ظنَّ الجميع من فيهم أم محمد أنه لن يعود أبدًا وعاد الصمت الكئيب كصمت القبور يستولي على البيت، تمرض فرج مرضًا ظنوا للوهلة الأولى لا يرجى منه شفاء. امتلأت البلدة الوادعة بالجزع على الصبيِّ اليتيم. استيقظوا صباحًا، وإذا بحرارته ترتفع ويلبث في فراشه متوجعًا، أتت الجدة بإناء ماءٍ بارد وخرقة، غطستها بالماء ثم عصرتها ووضعتها على رأس الصبي، وأتت بالأخرى ومسحت تحت إبطيه وبين فخذيه، لكن الأمر تفاقم، يجلس العجوز وعد الله خائفًا يبصر الكمادات بترقب وهلع كأنه يناجيها، يتدفق الحزن في قلوبهم حتى غدا أهوج مجنونًا، يخرج العجوز راكضًا إلى المختار أبي حبيب،

يطلب عبر الهاتف الدكتور محمد، وماذا يفعل وهو في بغداد يفصل بينهم صحارٍ طويلة؟ ينصحه إن لم يتحسن أن يأخذوه إلى مستشفى هيت العام، وعليهم أن يتداركوا قبل الليل، يغلق الهاتف ووجه يقطر هيبة، ويردد: «هيت»! لم تكن هيث بالبعيدة، ولكنها ليست قريبة على أيِّ حال، عشرة كيلومترات عبر طريق صحراوي وقبل أن تشيع السيارات وهو شيخ كبير، والصبي لا يقدر على الاستيقاظ، فضلًا عن المشي!

«*ولا تهتم حاج، نحن عائلة واحدة*»! جاء صوت المختار منقذًا ولم يكن هناك مجال للتفكير، رأى المختار في هذا الرأي فرصة مناسبة لإثبات وجود منتظر، وكان هو من القلائل الذي يملكون فرسًا وعربةً تُجر، اشتراها من سائس قديم هاجر إلى الفلوجة وترك المهنة التي كسدت، وهو من عادته أن يستغل أي شيء ويحتفظ به، حتى الهواء لو استطاع أن يتاجر به لفعل، الماء، الشاي، السكر، كما سيفعل بعد ثلاثين سنة في الحصار القاهر، صعد العربة وتحول إلى سائس ماهرٍ، توقف أمام دار العجوز، دخل مسرعًا، وجد العجوز على رأس الصبي والجدة وهادية التي بدت مكشوفة الوجه على غير عادة النساء أيَّام العدة، همت بالاختباء من الغريب، حثها العجوز: «*الضرورات تبيح المحظورات*». حملوا الطفل متثاقلين إلى العربة التي أدخلها المختار إلى الحوش بسرعة مدهشة. صعدت الجدة أولًا في العربة ثم فرج في حضنها ولحقتها هادية بعد أن لفت وجهها بخمار، ثم مضى الفرس يلتهم الأرض التهامًا ويطوي الدرب الذي طال على العائلة وعلى فرج الذي بدأ يئن. وصلوا إلى المستشفى وأخذوه إلى سريرٍ مهترئ، فحصه طبيب وحقنه، ثم قال: «*بسيطة*».

لبثوا في المستشفى، رفضوا سماع كلام الطبيب بأخذه للبيت، كانت هادية غارقة في التشاؤم، كما يقول أخوها محمد، لن يكون تشاؤمًا مع الأيَّام، إنها تصارع الأيام المجنونة، فأيللت الدنيا وفرج في سبات، لم يتحرك إلا من نفسٍ وحرارة تحرق أكبادهم، في اليوم التالي استمر الحال، بضجر العجوز يدخل على مدير المستشفى ويتصل من هاتفه على ولده الذي يحكي مع المستشفى، يعطي التعليمات، ولكن الحرارة لا تنخفض انقبضت الصدور، تأهبوا لموتٍ قادم، هادية وأمها في بكاء ودعاء، لون الوجه يتغير ومعه تخور الهمم وأمل الخروج من المحنة.

-7-

المحنة «2»

بعناءٍ وتثاقل صعد العجوز قلعة هيت التاريخية للصلاة والتبتل بجامع الفاروق التاريخي، كانت الدموع تهطل بغزارة وتبلل لحيته، يسمع أصوات الباعة والعابرين فيتخيلها شؤمًا مثل نعيب الغربان، أهو يائس، خائف، أليست أقدارًا مكتوبة، في لوحٍ محفوظ، من قبل أن يخلق الله الدنيا ومن عليها؟ لمَ يمر بهذه الحالة القلقة، مات الأب، إذا تبعه الابن فهو قضاء وقدر، شعر أن الطريق بين المستشفى والجامع بعيد جدًّا، وصله أخيرًا قبيل العصر، نظر إلى المنارة المائلة، توضأ ودخل، صلى ركعتين ثم دخل في موجة مناجاة، بكاء وإلحاح، تقطعت السبل، بدا مثل غريب لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان، أليس مرض من نحب غربة، فكيف يعتاد عليه؟ يهيم بوادي الدعاء، يلح ويعلم أنه موعود بالإجابة، صلى ركعتين آخرتين، في السجدة الأخيرة أطال أفاض الدمع، نذر أن تتعافى الولد من الحمى الغامضة أن ينذره للعلم، متلقيًا وطالبًا، فإن لم يستجب فخادمًا، لأي شيخ ولو بعيد،

في منتصف الدعاء همست أفكاره: أمقايضة مع الله؟ اشفه وأعيده إليك؟ استعاذ بالله ولعن الشيطان الذي يكدر حتى خلوته.

بكى كثيرًا حتى تداركه مؤذن المسجد: «ستموت أيها الشيخ».

- دعني.
- إنه غفور رحيم.
- لكنني عاصٍ، ذنوبي كثيرة.
- لا ينقطع الرجاء.
- لم يطهر القلب بعد.
- الله لن يترك عباده المؤمنين المخلصين.
- ومن قال لك إني مخلص؟ أنا عاصٍ.
- لن يترك التائبين.
- أنا من الغافلين.
- وجهك لا يدل على غافل، بل وليٌّ صالح.
- «لولا ستْر الله عزَّ وجلَّ ما جالسَنا أحدٌ».
- كفى أيها الشيخ، أنت تعذب نفسك.
- وهل هناك عذاب أعظم من الغفلة، من التردد، الشك بالله وبرحمته.
- استغفر الله.

وبينما هم على حال من الشد والجذب وصل المختار لاهثًا، لما رآه العجوز وهو على حالٍ من التعب واللهث توقع أن الطفل مات، انقبضت نفسه، شعر بوحشة تتسلل إلى أعماقه وتخيل زوجته وابنته وهما يملآن المستشفى عياطًا، معظم الأشياء المهمة في حيواتنا تحدث ونحن في غياب، فلما عبَّ نفسًا قال: «استيقظ الولد يا مولانا!».

- الله أكبر.

- وهو على أحسن حال، كأن لم يعرف مرضًا!

شعر بقوة ونشاط عجيب وهو ينزل من القلعة إلى العربة ركبًا مسرعين. كانت الوجوه فرحة، وصلا إلى المستشفى، نزلا بعجلة ورأيا فرج يلاعب أمه، فقال العجوز، الحمد لله، وصار يردد: «قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

-8-

الإنسان أصله قرد!

في السنوات الأولى بعد عودته من بريطانيا لم يحب قلبه امرأة، لا يعلم من أين استلهم البرود تجاه النساء، وهو من سلالة لم تعتد شيئًا مثلما اعتادت الزواج عن صغرٍ، ثلاثة أشياء وشمت به بلدته وقبيلته: الزواج، الدين، المال. فإذا شبَّ الطفل منهم ضرب في الأرض بحثًا عن الرزق وكلما تقدم العمر أضاف زوجة ما دام الشرع قد حلل أربعة، وقد يتساقطن في الطريق موتًا أو فراقًا فيزيد العدد، صحيح أن والده الشيخ وعد الله اكتفى بواحدةٍ فلما ماتت تزوج نوال بنت مسعود الكبيسي فلما لم تنجب أبت أن يتزوج الثانية طلقها وتزوج الثالثة التي أنجبت له الدكتور محمد وهادية ويعدُّ مقلًّا لكنه في أعراف الناس في باقي المدن مزواجًا، ثلاث نساء، وهو غير متجهٍ للدنيا وزينتها، إنما رجلٌ يبتغي الآخرة، فمن أين لهذا الابن هذه القدرة على الصدِّ وهو الذي رأى. تقول أمه في بعد جلسة طويلة محاولة إقناعه: «الولد تعلم ورأى ما لم يره أحد، شقراوات وجميلات ومتعلمات، لم يعد يرقن له بناتنا،

حاج، ما فائدة المرأة إن لم تطبخ وتخبز وتنذر نفسها للبيت، الله على أيامنا، معقولة الدنيا تغيرت».

يقول العجوز بتفاعلٍ: «لو تزوج من أجنبية كان خلصت من اللوم!».

- ولمَ اللوم، هل دخل سن اليأس؟

- يا امرأة، الناس تقول، من لم يتزوج فهو منحرف، الله يكفينا، من يتجاوز العشرين من دون زواج فهناك في بغداد يذهب إلى الخمارات والفاجرات الله يعيذنا.

تقول بصوتٍ غليظٍ قاسٍ: «لا، محمد لن يفعلها».

- يا أم محمد، بغداد غير كبيسة! والله خلق مدنًا أخرى غيرها.

- ولكنه صائم مصلٍّ، ويقرأ القرآن، وهذا كله يعصمه، دينه في قلبه.

- ومن يقول الدين واحد؟ هناك الناس بلا دين حقيقي، أنسيتِ عواد ابن خالك عندما ذهب في رمضان الماضي ورأى الناس تأكل وتشرب كأن الشهر الفضيل لم يصلها؟

وضعت راحتيها على صدرها وهي مصدومة، أكمل العجوز: «عدا الشيوعية والعولمة والقومية والتي كلها تبتعد عن الدين!».

- وما هذه يا حاج؟ مدن جديدة؟

- لا، أفكار خطيرة ضد الدين! تخيلي، واحد من هؤلاء الذين يقرأ لهم ولدك وتعلم من كتبهم في أوروبا يقول: «الإنسان أصله قرد»!

- يا غارة الله خفي!

- أي، يكفرون، يخالفون ما أمر الله، يعني القرآن يقول خلقنا آدم من تراب، وهذا المهبول يقول كان قردًا.

قالت بحزن: «ومحمد صدق؟».

- طبعًا!

- الولد لم يعد فاهمًا، عين لم تصلِّ على النبي وحسدته.

وهكذا تمضي أيَّامهما بترقب وخوف من أن يفلت ولدهما بزواج من غير فتاة من بلدتهم، أما الدكتور محمد الذي كان يبني حقائقه وتصرفاته على العلم والتجرد فلم يعبأ كثيرًا بحديثهما، خاصة وأن الشهور الطوال تمضي من دون لقاء، لقد فُتن ببغداد، ورأى فيها تعويضًا عن بريطانيا، على الأقل هي مدينة لا صحراء، وطنٌ حقيقي منتزع من وطن تركه وخلَّف فراغات، حتى عندما صدر أمر نقله إلى سامراء لم يزعل كثيرًا، وما بغداد وسامراء؟ واحدة، فقد مد جذوره في أرض بغداد عميقًا ولن يخرج منها إلى الأبد، وظيفته، سكنه، علاقاته التي وإن بدت محدودة لكنها تتسم بالعمق والتعلق الذي لا يعرف فراقًا، فهو الذي يرى أن الصداقة كالحب، لا عمر يحدها ولا انتهاء ولا شروط، إنما ممتدة وجارية مثل نهرٍ يشق طريقه، صحيح أن العاصمة طفحت بالأيدولوجيات التي تحولت إلى قبائل متصارعة والتي لا يحبذها محمد، لكنه أهون من ركود بلدته أو موتها.

-9-

ثقة مهزوزة بهذا العالم

عندما وصل سامراء لم يجدها مدينة، إنما تكية تغفو على النهر، واجتاحت قلبه مرارة أول الأمر، فهو ليس صوفيًا متولهًا حتى يأنس بجوار الإمامين، ولا قرويًّا يروم تجريب المدنية الأولى، ولا باحثًا في الشؤون الدينية والاجتماعية حتى يفرح بها، كان طبيبًا، عائدًا من بلادٍ بعيدةٍ، ومثقلًا بكل ما منحته تلك البلاد من ملذاتٍ وصخب وانفتاح ومعرفةٍ، ثم يسألونه لماذا تشعر بالوحشة؟ كانت الوحشة قد تسللت إلى قلبه، فلا هي مدينةٌ أهله، ولا هي مثل بغداد، مدينة تعويض. صعد في الحافلة المنطلقة إلى الموصل، في ثلث الطريق تقريبًا توقفت الحافلة، أشار إليها السائق: «هذه *سامراء*». عبر الجسر الممتد ودخل إلى مدينة صغيرة تعلوها مأذنتها الشاهقة وقبب ثلاث، وصخب الباعة والجوالين والزوار، وصل إلى المستشفى الذي كان جديدًا نوعًا ما، ثم إلى غرفة المدير، قام من مكانه، فرغم أن الدكتور محمد يميل إلى القصر فإنه هيئته توحي بعلو الشأن، بدلةٌ سوداء، وربطة عنق زرقاء، ونظارة دائرية، مع

بداية صلع خفيف، صافحه قائلًا: «الدكتور محمد وعد الله الكبيسي، طبيب جديد، تخصص طب عام».

- أهلًا وسهلًا، وأنا الدكتور فراس الباز، مدير المستشفى، استرح.... كيف كان الطريق؟

- متعب، ولكن ماذا نفعل؟

نادى المدير على سكرتيره، ثم قال للدكتور محمد: «شاي أم عصير بارد؟».

- عصير.

أمر السكرتير ثم عاد إليه: «أي دكتور، أنت خريج أين؟»

- بريطانيا.

- أوه، ما شاء الله، طبعًا نحتاجك جدًّا، ولخبرتك الطويلة، أهلًا ومرحبًا بين أهلك، عندك سكن هنا.

- لا.

- يجب أن تستأجر، فهنا كما ترى لا مكان للنوم، فقط عند المناوبة، وأعتقد من الصعب أن تداوم الأسبوع ونهايته تعود إلى سكنك... أين تسكن؟

- بغداد.

- متعب جدًّا أن تذهب أسبوعيًا.

- يجب أن أعود كل أسبوع إلى بغداد.

- مع ذلك الإيجار ليس مكلفًا هنا، وتشتري راحتك، هذا الأسبوع طبعًا ستبقى هنا، وبعدها نرى كيف تسير الأمور.

في البداية قرر أن ينسف كلام المدير، ورأى فيه شحًّا، وقرر أن يمضي على ما عاهد عليه نفسه، يأتي أيامًا خمسة ويبقى حبيس المستشفى ثم يعود

يوم الخميس إلى العاصمة وإلى شقته الأثيرة التي يتقاسمها مع الدكتور حمد العاني في الأعظمية، لكن الأمر لم يكن يسيرًا كما تصور، فالذهاب والإياب يقضمان الراتب الزهيد، ومصاريفه اليومية، وما يدفعه إلى زميله في شقة الأعظمية، رأى نفسه مفلسًا وبطريقةٍ لا تتناسب مع ما صنعه لنفسه من هالةٍ وعشق للأناقة، حتى اضطر في الشهر الثاني أن يكاتب أباه الشيخ وعد الله، أن يبعث له بدنانير خاصة وأنَّ الزراعة في أحسن أحوالها، وبستان أبيه الذي ورثه يدر ربحًا مغريًا، عدا المصاريف التي تضاعفت التعب الذي ملأه، ففي نومه وأوقات راحته يأتي من يزعجه ويكدر نومه، ليلًا ونهارًا، مما دفعه إلى أن يعود إلى نصيحة الدكتور فراس، فسعى لأن يستأجر بيتًا في ضواحي المستشفى بعد أن اتصل بحمد العاني وبلغه أنه في حلٍ منه ابتداءً من مطلع الشهر القادم. استقر في مسكنه الجديد، بيت عتيق، بين منازل الأزقة الضيقة استكرى بيتًا صغيرًا، وعلى الرغم من ضجيج الأولاد الذي لا يحلو لهم اللعب إلا في الشارع فإنه عند عودته إلى بيته بعد الثالثة ظهرًا وزعيق أبي مراد الذي لا يحلو له العراك مع زوجته إلا بعد العاشرة ليلًا فقد شعر بشيء يشبه السعادة، ليس سعادةً بالضبط، شيء يشبه لذة الاستملاك، الاستقلال، الشروع في عالم آخر بعيد عن ضجة العاصمة والمستشفى، ينام بعد الثالثة حتى السادسة، ومن السادسة يبدأ يومه الذي هو عبارة عن قراءةٍ وكتابة، لم يجد في سامراء ما يشده، وهو الذي اعتاد جدة العلم وصرامته، لينتهي به المطاف في مدينة كثير من أهلها يقصدون ميتًا إذا مرض، ويبكي عند شباكه إذا أذنب أو ساءه حالٌ، لذلك استغرق في نفسه، ذهبت نشوة العودة من الغرب وبدأ يفتش في أعماقه، يفتح الكتب والمراجع في شتى العلوم والمعارف ويقرأ حتى يكلَّ بصره، وغالبًا ما يرفع بصره من الكتاب فيرى الساعة قد بلغت الحادية عشرة، وقد لا يرفع بصره إلا من جوعٍ، أو مصيبة تقع في الزقاق الضيق، لا ينكر محمد أنه عاش فترة ذهبية، وبدأ بكتابة مقالات عن الخرافة، الأسطورة، الأولياء وتأثير هذه المفاهيم على العقل الحديث، مستعينًا بما أوتي من حقائق علميَّة صارمة، رأى نفسه

بلا مقدمات ينحو نحو الكتابة عن صراع الدين والعلم، وبدأ ينشر مقالاته بشكل دوري. يعتقد محمد أن الصمت الذي يملأ المدينة فتح مغاليق في نفسه، وبدأ يجيب عن أسئلة كبيرةٍ لطالما شغلته في جامعته البعيدة وحاول بلحظة جنون رهيبة أن يترك كلية الطب ويلتحق بقسم الفلسفة بكلية الآداب، فلما سأله زميله ناظم عن السبب قال: «*أريد أن أعرف الحقيقة*»! لقد مضى محمد في تلك الفترة بجنونٍ غير مسبوق لتتويج أهله بخيبة أمل، لكن زملاءه برهنوا له أن التخصص الجامعي نُهَيرٌ أمام بحر العلم المتلاطم، وهكذا سكن روعه، ومع الأيام نمت بسرعة هائلة رغبة التعلم والفصل بين الرجل الشرقي والغربي، ووضع الحدود والرسوم لهذه النظرية، في سبيل خلق كتاب ضخم عن الفرق بين الإنسان الشرقي والغربي، بين القديم والحديث، بين المكان وصناعة المفاهيم، ألم يرَ غاستون باشلار في كتابه «جماليات المكان» أن المكان والبيت عشٌ، ومنه تنطلق ثقتنا بالعالم، فلمَ عاد من منفاه محملًا بالنقمة على الشرق؟ كيف هزت ثقته الأمكنة؟ الأماكن التي أحبها تحولت إلى كونٍ منغلق على نفسه، تتوزع وتختلف الدروب وتشتت الحلم والذاكرة معًا، ثم يستلهم من فكرة كتاب «جماليات المكان» مقالًا عن التناقضات بين الرجل الشرقي والغربي في ضوء رؤية الكتاب.

-10-

صدمة أولى

بقي الدكتور فراس يتابع القراءة باهتمامٍ وروية، وسيماء التعجب تتابع على محياه. حتى دخل محمد سلم ثم استقر أمامه، بينما الدكتور فراس والذي صار وجهه وجهَ مديرٍ لا صديق فقط كما برهن له في الشهور السالفة، دفع الجريدة نحوه تناولها محمد وريبة اجتاحته من هذا الصمت المطلق، رأى مقاله المنشور منذ أيام بعنوان: «الأولياء.. طبٌ بديل».

تابع المقال وقرأه بعينين فاحصتين وكأن المقال لم يكتبه، ثم سأل: «ماذا هناك يا دكتور؟».

- دكتورنا، ألا ترى أنك دخلت إلى أماكن ممنوعة؟

ابتسم محمد ابتسامة خفيفة: «معقول، أماكن ممنوعة؟ أتعرف ما تقول؟».

ثم قال بلهجةٍ صارمةٍ: «عفوًا دكتور، أرجو أن تراعي المكان الذي أنت فيه، وأنني مدير!».

شعر بإحراج كبيرٍ، صار يحرك براحتيه ويفركهما ولم يعد يعرف ما يقول فتابع الدكتور فراس: «نحن هنا مدينة دينية عشائرية منغلقة، تؤمن ببعض المفاهيم والرؤى التي هي بدورها أشبه برمال هذه الأرض، يعتقد الأهالي أن هؤلاء الأولياء وآل البيت هم بركةُ المدينة وسر بقائها إلى اليوم! ثم تأتي وتكتب لامزًا!».

أراد أن يحكي ويعترض: «قصدي من هذا..».

قاطعه بوجه جامدٍ: «أعرف، لكن صعب هنا، وقد أشرت لك على بعض المواطن بالقلم اقرأ ما كتبته بتأنٍ، هذه نصيحة لا تسبب صدامًا أو إحراجًا لنا ولكم».

حاول أن يقلع عن الجو الكئيب الذي زجه به: «أين تذهب في المساء؟».

- لا أذهب.
- أين تقضي وقتك بعد الدوام؟
- في البيت.
- ماذا؟
- أي والله.
- ألا تحب السهر؟

قال باسمًا:

- وأين السهر هنا؟ كل الناس متدينة وتتعبد وتنام مبكرًا!

ضحك الدكتور فراس وقد تغير مزاجه: «اليوم عازمك على العشاء عندي في البيت».

تردد، شعر أن إهانات كثيرة سُددت إليه وهو خاضع، فقال فراس: «لا تكن مزعجًا، تعال الليلة، قم وتابع عملك».

خرج مذهولًا، وهو يحمل الجريدة بين يديه، من تناقضات هذا المدير وتغيره، مثل طقسٍ يتغير كما الفصول الأربعة لكن في يوم واحد.

وصل إلى صالةٍ مليئة بالأسرة، جلس بين أنين المرضى وأصواتهم الموجوعة، عاد يقرأ مقالة بحثًا عن العبارات التي وضع الدكتور فراس خطوطًا تحتها، فوجد هذه العبارة: «*يغرق الإنسان الجاهل في لجةٍ من الأساطير والأهواء التي تتلون وتتمظهر بأشكالٍ متعددةٍ، ومن هذه الأشكال الإيمان بالأولياء والصالحين والمراقد والأضرحة التي لا يقين بصحتها*»! ثم تابع بصره إلى الخط الثاني: «*إن الحقيقة التاريخية أثبت زيف جلَّ المراقد، وإن من يقصدونها هم أُناس جهلاء يبحثون عن بصيصِ أملٍ ينقذهم من فقرهم المدقع، وحاجتهم إلى المال، الزواج، الصحة، تخيل لا يراجعون طبيبًا إنما وليٌّ، وهذه بقعة مظلمة من العالم*»! ثم يقفز إلى الخط الثالث: «*الطب عند العامة خيار أخير مهمل، يقصده عندما يشارف على الموت، ويعجز عن قصدِ مرقدٍ في صحراء بعيدةٍ*». تنتهي الخطوط ويحك رأسه عن سر غضب المدير ثم العزومة المباغتة التي لن يجد بديلًا عن الاستجابة، رمى الجريدة، شعر بخوف يزحف نحوه، وتحول وجهه إلى وجهٍ مذعورٍ كوجه أرنب.

-11-

مخاوف

استيقظ عند السادسة والربع، ارتدى بدلته ومسح شعره بزيتٍ ثم خرج يسير بهدوء، كان المساء يتداعى والأصوات بعد لم تهجع، الناس في المدينة ينامون بعد العشاء، إلا مُحبِّي السمر ممن يجلسون مع أصحابهم في زج الحكايات، عدا ليلة الخميس التي يقصد الدراويش تكاياهم ولن يستطيع الدكتور محمد أن ينكر فكرة مقالة متأتية مستلة من هذا الجو. وصل إلى البيت وكان بسيطًا، لم يظهر دكتور فراس ثريًّا، بناءٌ عتيق وصغير، ومساحة البيت الكبيرة مستغلة حوشًا وحديقة. جلس على مقاعد في الحديقة وقد رأى الدكتور فراس منشرحًا على غير عادته، فهو اقترب من الستين، جاد في عمله لا يعرف تهاونًا، ربما يقوم بواجب الضيافة الذي تأخر بعض الشيء، جلس بكامل قيافته بينما الدكتور فراس كان مكتفيًا بدشداشةٍ بيضاء، أتى ولده مصطفى بالماء المثلج ومن بعده الشاي، وبعد الترحاب شرع يشرق ويغرب عن عادات المدينة وتفاصيلها: «يا دكتور، أنت تعرف أننا غير بغداد، وهنا

الناس بسيطة، ومعظم الذي يحملون لقب «السامرائي» من مهندسين وأطباء وعلماء ليسوا أصلاء، يدرسون، ينبغون، ثم يهاجرون، ويستقرون بعيدًا عن المدينة، وأنت عندما تكتب وما شاء الله لك اهتمام نحسدك عليه، أنت تطعن بصلب المدينة وتفكيرها، ستقول خرافات، بدعٌ، لكن هذه الخرافات والبدع تستطيع أن تؤثر عليك! هؤلاء الشيوخ لو علموا بطعنك وأنك لابث هنا بينهم لسودوا عيشتك!».

ندت منه بصوت عالٍ: «سحرة؟!».

- سمه ما شئت، سحر، وهم يسمونه كرامة، لذلك ما أقوله لك أن تبتعد، طبعًا إن كنت تنوي الاستقرار هنا طويلًا.

شغلته هذه الفكرة، هل سمع من يقصدون المراقد بمقاله حتى أطلق هذا الرجل رصاصة التنبيه القاسية؟

- كل شيء هنا يجري من منظور مقدسٍ، الناس تصلي وتصوم، تعرف الحلال والحرام والعيب، ينامون مبكرًا، لا خمارات، لا سينما، لا مسرح، لا صخب.

ثم تنفس، كان يتكوم على مللٍ لا يعد، نصب ولده الطاولة وأتى بالشواء الذي فاحت رائحته في الأرجاء، وفجأة وبطريقة ماكرة دس الولد قنينة الخمر على الطاولة.

نظر فراس إلى القنينة الشفافة بتعجبٍ وإكبارٍ، كأنه عاشق، معذب لاح له الفرج، وأخذ يتمتم وهو يعاين القنينة بغرابة: «لو تعلم كم حوربت والناس كرهتني وتكره أن تأتي بنسائها عليَّ بل وتعتبرني مخروم المروءة والذمة والضمير، فقط لأني أشرب كم كأس من هذا، إن أولادي يخشون الخروج إلى الشارع وذكر أنهم أولاد المدير، لمَ كل هذا؟ يقولون إنني أشرب «بالقندرة»، وهو تعبير مجازي، أو استعاري، سمه أنت يا بلاغي ما شئت، تعبير عن الخمر وشدتها في العقل الجمعي الذي خلقه رجال الدين، حتى تحول هذا العشق الذي بين يدي إلى كراهية، وصرت أنكر أني سكير، أشرب خفاءً في

بيتي، وإذا صارحني أحد بحقيقة سكري، أنكرت، ورعدت، وذكرتهم بتوبتي وإقلاعي عن المنكر، لا تحسبه خوفًا، فهم بسطاء لا يؤذون أحدًا، لكن خوفًا على أولادي مصطفى وريم وخولة، بعد عمر طويل لن يغفر الناس لهم ذنبي، لذلك حذرتك قد يطولُ المقام بك، وقد تطيب الجلسة هنا فتبقى أبدَ العمر، من يدري؟».

- لا، أنا مستقري في بغداد.

- القلب وما يهوى، والأقدار وما كتبته.

نقم في تلك اللحظة محمد على فراس، رأى فيه رجلًا مستسلمًا، خاضعًا لجملةٍ من الظروف الاجتماعية، حتى ملذاته وعائلته صار يحاكمها وفق ما يريد الناس، فراس ليس المثقف الحقيقي الممتلئ بالمبادئ الصارمة التي لا تتزحزح، أما الآن فقد عافت نفسه هذا الرجل. مد له طبق الكباب، حثه على الأكل وهو ساخن مع البندورة والبصل المشويين، وثم صب له كـأس: «تشرب أكيد؟».

- لست مكثرًا، ولكن لا بأس.

- اشرب يا دكتور، أنت أجنبي، لم أصدق أن يأتيني أحدٌ، أنت وقعتَ من السماء.

بعد الأكل أتى بالنرجيلة والشاي، وهناك شعر محمد بسعادة جامحة، كأنه امتلك العالم، لم يكن مدخنًا لكنه جرب بعد الشراب والأكل الدهين الذي جعله متخمًا بطريقة غريبة، صار يقارن بين لذتين، في هذه المدينة، الكتابة والقراءة واليقظة، والأكل والشراب ثم الدخان، أيهما يغلب الآخر؟ لا فرق، كلاهما سفر وخروج عن المألوف، بعد الشراب ودخول عالم الدخان سيشعر بمعاناة فراس، صديق مختلف، يدير مستشفى صغيرًا والناس لا تحبه ما ذنبه؟ عند الحادية عشر خرج مترنحًا، يشعر بثقلٍ غريب، إلى أن وصل الزقاق الضيق ورأى أبو مراد يدخن سكارة في الباب، لعله زعلان من زوجته، دخل البيت ثم وضع إبريق الشاي، انتظر حتى فار، أنزله وهو يجاهد نفسه لمتابعة

السهرة والقراءة، مسك الكتاب فلمح فيه خيال رجل وراءه، لم يستدر، ظلمة مخيمة، ظلال رجل، هو سكران، غريب، بين قوم سفه معتقدهم، أدرك أنه هالك لا محالة، ماذا فكر لحظتها؟ لم يكن هناك أشياء كثيرة يستحضرها، إلا الشراب الذي امتلأ به، انتظر أن يطوقه خنجر يحز رقبته، مسدس يفجر رأسه، استحضر كل أنواع القتل فلم يحصل شيئًا، استدار سريعًا فلم يرَ شيئًا، ارتعدت أطرافه بطريقةٍ صاخبة، قام متوجسًا، تساءل عن اختفاء القاتل؟ لمح جسدًا يتحرك في الصالون، أو ظلال جسد، زمجر: «من أنت»؟ اختفى الظلُّ تمامًا، أخذ فانوسه وراح إلى الصالون فلم يجد شيئًا، ثم لمح باب الغرفة يتحرك فانقبض قلبه وهم بالرجوع إلى المطبخ أو الخروج، تراجع، ذهب إلى الغرفة فلم يجد شيئًا، عاد منهكًا، وقبل أن يجلس سقط إبريق الشاي من المنضدة محدثًا زوبعة هائلة، فار رأسه، لا بدَّ أن هؤلاء الأولياء الذي انتقدهم سحروه، أجل، ألم يحذره فراس، طوقه رعبٌ صاخب، يريد الهرب، لا مناص، تمدد في المطبخ وقد خاف دخول الغرفة ثم نام على هذا الحال الوجل.

-12-

المرأة والعلم

في تلك الحقبة لم يكن الدكتور محمد بعيدًا عن بلدته فحسب، بل ومثيرًا للاهتمام بين الفينة والأخرى، فتلك الكتابة الدورية التي بدأها في عام 1966م وهو ما زال في بريطانيا واستمرت عندما خدم في سامراء كان لها صدى وإن كان خافتًا إلا أنه أزعج والده الشيخ وعد الله، فعندما قابله الملا عدنان الفياض بعد صلاة المغرب بدا الزعل والضجر في وجه الملا، وكأن الشيخ وعد هو من دفعه إلى الكتابة، بل وطلب منه البقاء للحديث معه بعد فراغ المصلين من النافلة، فوارب أول الأمر، وحكاه عن بلاد الكفر وأن من ورائها لن ينال مسلم خيرًا، انقبض قلب الشيخ: «ملا، تركت الفأر يلعب بعبي!».

- ولدك يا شيخ، محمد، الخلوق المؤدب الذي يحفظ أجزاءً من القرآن، وفجأة تركته يرحل إلى بلاد الشر والكفر، انظر يا شيخ ماذا يكتب؟ يقول في مقاله هذا إن الإنسان عندنا مفطور على التخلف، وإن المرأة

مظلومة، ويطالب بتعليمها، أهذه أخلاقنا يا شيخ؟ الذي يحافظ على عرضه وشرفه من أي سوء صار متخلفًا؟

لم يجد الشيخ جوابًا، وماذا يقول وهو لم يقرأ ما كتبه ولده أصلًا، وحتى إن قرأه فهل سيفهمه؟

فتابع الملا بضجر: «منذ أن خلقنا الله والمرأة لا تخرج إلا مرتين دون أهلها، الأولى إلى بيت زوجها، والثانية إلى القبر، عداها محكومة في بيت أبيها ثم زوجها ولا تخرج إلا بإذن ومحرم!». فقال الشيخ وعد الله بعد أن أنهكه كلام الملا: «ألم يحث الإسلام على العلم من دون أن يفرق بين ذكر وأنثى؟ بين كبير وصغير؟ هذا مقصد ولدي لا أكثر!».

- استغفر لذنبك يا شيخ، وهل الإسلام حث على العلم الذي عند الكفرة ومدارسهم التي اختلقوها؟ هؤلاء في المدارس لا يعلمون كلام الله وهدي حبيبه صلى الله عليه وسلم، إنهم يدرسون امرأ القيس وعنترة والمتنبي والحملة الفرنسية ولغة الإنجليز! العلم الذي يريده الإسلام كتاب الله!

عاد الشيخ محتارًا بعد ذلك اليوم، ولم يجد بدًّا من كتابة رسالة يوضح فيه ويستعلم: «**ولدي الحبيب،**

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، أرجو أن تكون بخير وعافية، أنا وأمك على خير كثير، أختك هادية في الرطبة، وتأتي كل ستة أشهر مرة وهي على حالها من ضيق الحال وقلة ذات اليد، ولكن لم أنسها.

شاع في البلدة أنّك تكتب في المجلات والجرائد ما لا يرضي الله ولا يرضي رسوله عليه الصلاة والسلام، وتحرض الناس على تعليم المرأة وترك الخرافات والمعتقدات التي تجانب العلم، وأحب أن أقول لك إن دعواك هذه لاقت استهجانًا عظيمًا في البلدة، الناس ترفض ما تتفوه به، ويقولون إن الولد القارئ الطاهر كيف انقلب به الحال يدعو إلى الابتعاد عن روح الدين وعاداته، منفذًا ما تمليه عليه ملة الكفر! أرجو

أن ترد عليَّ بكتاب توضح فيه للشيوخ والوجهاء ما ترمي إليه، لا أن تكون مثل صبيٍّ رمى الناس بحجر وهرب، فعمري وقوتي لا يتحملان اللوم والعتاب.

أمك تبلغك السلام الحار، ونتمنى عودة قريبة في الصيف القادم ما دام العام الدراسي سينتهي، وستأتي إليك مع الرسالة ستون دولارًا لعلك تحتاج إلى شيء.

والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

والدك: وعد عبد الرحيم الكبيسي

كبيسة: 13/4/1966م».

***

لم يطُلْ عتاب الملا عدنان ومن تبعه من علية القوم، فقد عاد محمد في عطلة الصيف وهنا الصدمة، عاد بغير الوجه الذي ذهب به، محملًا بمعارف ومصطلحات وقدرة على الجدال لم يعهدوها، يصمتون كلما تعمق في ألفاظه ورؤاه، الملا الذي يحفظ القليل من المتون والشروح التي تدرسها على يد الملا نعمة الراوي في راوه مع أجزاء من القرآن لم يعرف أن يجيب هذه الجذوة المشتعلة والقادرة على حفظ المصطلحات والأسماء والتواريخ والقدرة الفائقة على الإقناع، أما المختار الذي آزر الملا في رفض أفكار محمد فقد كانت أفكاره تتوقف عند الإلمام اليسير بتاريخ السياسية أيام الملك، فإذا تخطاه من ينازله تقهقر ورأى نفسه في هوة لا يعرف منها مخرجًا، لذلك اطمأن الشيخ وعد الله مما يكتبه ولده وتتناوله العامة، ولم يبقَ من تلك الغضبة التي شنها الملا إلا حفيفًا هامسًا، يتناقله في المجالس التي تخلو من الشيخ وعد وولده بالطبع، وعندما يؤوب محمد فلا يجرؤ أحد على مناقشته، يكتفون بنقاش عابر الدنيا وما يحصل فيها.

-13-

{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}

لو كان لأبي أن يختار قدره لفضل أن يموت بتلك الحمى القاتلة التي أدركته، ودُفن جنب جدة أمه لميعة في التلة التي تشرف على منازلهم، ولكان الأمر أقل مشقة على أمه وجده من نذرٍ سبب لهم متاعب كبيرة. لكن القوة الإلهية اختارت أن تمضي العائلة في صراعٍ مع نذرٍ خشي الجد عاقبةُ تركه. فما إن مضتْ سنتان على شفاء فرج حتى توعكت صحة الشيخ وعد الله، كان العمر يمضي في جسده بطريقة قاسية وهائلةٍ، تمطت الأمراض في جسده ومشت تحرثه مثل حقل مجدب، حتى بدا جسده على مشارف التسعين وهو لم يكمل بعد السبعين، يجلس قبيل المغرب عند باب البيت يتأمل السماء وتخيم بظلامها، يسمع أذان المغرب، ينادي على فرج ليصحبه والجامع قريب، يصلي ثم يجلس يستغفر ويرمق المصير المنتظر، وينظر إلى فرج ويتذكر دعواته في جامع الفاروق في هيت ونذره، العمر أوشك على المغيب، والمشقة في الرحيل لا الوصول، ولا بدَّ من الوفاء، يبقى ساهمًا إلى العشاء،

يصلي ثم يعود والحياة بالنسبة إليه تفاصيل توشك على الانتهاء، طيفٌ عابر أزف أن يتلاشى، فإذا صبت هادية العشاء تأملته، هي وأمها، فتعرفان.

«الحكاية نفسها؟».

تقول أم هادية وهي تعرف الجواب.

يغمسُ خبزته بصحن الطماطم ثم يرفعها إلى فيه، يمضغ على مهلٍ: «وهل من شغلٍ سواها؟ لقد نذرتُ نذرًا صادقًا، في لحظة موت حقيقيٍّ، ما كان لهذا الولد أن يتنفس ويعود صحيحًا لولا النذر، كان جثةً هامدةً، وأنتن لاطمات عنده، فرحتُ إلى المسجد ورفعتُ يدي متوسلًا ومتضرعًا، وقلت يا رب، إن قام هذا الولد فنذرا عليَّ وعلى آل بيتي أن نضعه خادمًا لشيخٍ صالح، رجل عارف، هذا الولد لله تعالى، وما إن أتممت جاء أبو حبيب، قم يا حاج، فرج استيقظ، يا ابنتي كل تأخير هو معصية لله عز وجل، فإذا جاء الموت لن يعرف أحدًا، وهل ترضين بعد هذا العمر العريض أن أجلس في قبري مذنبًا!».

لما قال كلمته الأخيرة خارت ملامحه بطريقة موجعة، تبدلت، وتجلى الموت أمام عينيه، أدمعت عينا أم هادية، وهادية صمتت وأوشكت على الصراخ، إنها أسيرة ألمٍ جنوني يوشك أن يتفجر، تنظر إلى فرج وقد وصل إلى العاشرة وهو يبادلها النظرات بعينين حائرتين، تقوم من مكانها وتعانق فرج بطريقة حميمية وتذرف.

تقول أم هادية: «اتصل بمحمد، لعله يشور عليك!».

يصمت العجوز بطريقة غريبة، تفهم البنت وأمها أطراق الشيخ، وتفاصيله، تعرفان موقفه من الدكتور محمد، يحسبه ميتًا، أحد الراحلين المنسيين، وتعترف هادية أن الشيخ محق في ظنونه وأفكاره بولده الذي دفع له «*شقا* عمره»، فبعد زواجه لم يأتِ إلا مرة لتعزية هادية وغاب كما يغيب الغاضب، انقطعت أخباره مثل فص في كومة الملح، ولم يعلموا حتى مكانه، بغداد، سامراء، أو بيروت، المدينة التي قال إنه قصدها، يتصل بالمستشفى من رقم المختار فلا يرد أحدٌ، بعد ستة أشهر اتصل مرة، وقال إنه مسافر، مع

زوجته غصون التي تدرس الماجستير، أصيب قلب الشيخ بخيبةٍ مريرة، ثم تعود مع زوجته على الحال الجديد، أو هو ليس حالًا، هو اللا شيء، النسيان، خطفته تلك المرأة كما توقعوا، وراح ينثر أمواله في بيروت بدل أن يتذكر الشيخ، أشياء كثيرة تحسر عليها الشيخ، ليس التربية والصبر عليه فحسب، بل الأموال التي أنفقها عليه في سفره، كانت المنحة التي تنفقها الدولة لا تكفي، لا لأنها قليلة، بل لأنَّ محمد مسرف، أشرعت تلك البلاد بملذاتها وصخبها على مصراعيها وهو غرق بها، فصار يرى أن ما يأتيه قليلٌ، وما إن كاتب أباه يطلب المعونة حتى صار يبعث له سبعين دولارًا تزيد أو تنقص مع كل رسالة يبعثها، ومن أين يبعث هذه الدولارات؟ بستان وحيدٌ يأكل منه، وأرض قاحلة في أطراف البلدة قرب التلة العالية التي أصبحت مقبرة فيما بعد، وهو موقع حسنٌ، في المرة الأولى والثانية دفع مما يدَّخره، لكن في المرة الثالثة لم يكن من خيار سوى بيع الأرض المتطرفة، «*سنتان ويتخرج الولد ويعود طبيبًا كبيرًا ويتقاضى راتبًا يحفظ لي شيخوختي*»، هكذا فكر، ثم أن هادية وولدها الحمل الجديد لم يكونا موجودين، يكفيه هو وزوجته القليل، تغيرت الأحوال، تضاعفت المصاريف، من كان يخطر له أن أمين سيموت بعز شبابه؟ الأقدار تسبق، تغيرت أحواله حتى فكر الشيخ بمصدر دخلٍ آخر، من أين؟ ولمَ علم ولده أحسن تعليم؟ ثم يجازيه بأن ينقطع ويمسك درب لبنان والدراسات، يقول ابن حمزة الكواء إنه عندما ذهب إلى بغداد لعلاج أبيه صُدم بحال محمد، رآه يأمر وينهي، وصديقه اسمه حمد العاني تعين مديرًا للمستشفى الكبير، بل زعم الشاب أن الدكتور محمد لم يهتم به، ولم يميز حمزة رغم حق المجاورة، أطل عليه، سلم عليه ببرود، تمنى له شفاءً عاجلًا. يخرج العجوز عند كل غروب منتظرًا، يسمع الأذان، يأخذ بيده فرج، يصلي المغرب ثم يعتكف إلى ما بعد العشاء، يعود يلتهم العشاء متحسرًا ومذكرًا المرأتين بالنذر.

-14-

قسمة ونصيب

كنفاذ سكين قاطع إلى القلب استقبل المختار الخبر من فم ملا عدنان، شعر بمرارة في حلقه وقلبه وكبريائه، إنه يقاتل، بلا نتيجة، يدور حول نفسه من غير خيرٍ، رفضٌ، يصاحبه صفعة، لكمة، طرد، هل هو إبليس حتى يُطرد هكذا، إنه مختار لبلدةٍ كبيرة، نال ثقة المحافظ رغم سوابقه وسجله العسكري المخذول عندهم، وبذكائه وفطنته تسلق حتى صار مختارًا حساده غير قليل. هادية ترفضه للمرة الثانية، رفضته وهي بكرٌ في عز شبابها وألقها، ورفضته وهي أرملة تثقل كاهل أبيها، وقد تبدد شبابها في بيت سقاء لم يشبعها خبزًا، يشعر بالإهانة، لم يتوقع أن العجوز الذي يمضي إلى حافة قبره سيعانده. فقال للملا: «أي، ولمَ الخاتون لم توافق؟ على الجاه لو الجمال لو الشباب، هي أرملة يا ملا».

- وهل الزواج يعرف ما تفوهت به؟ البنت رفضت يا مختار، لا تريد الزواج منك، وأبوها لا يغصبها على شيء لا تريده، دخلت الديوان وقلت

يا شيخ وعد ابن عمكم وكبير بلدتكم المختار أبو حبيب، من تعرفون سيرته وصنيعه ووقفته معكم في مرض فرج وبيع الأرض قبل سنوات، يطلب القرب، يد هادية بنت وعد، الرجل ما قصر، أثنى عليك ثناءً حلوًا، لكنه قال نشور البنت، قلت لم تخرج عن طريق، ناداها وسألها، فرفضت رفضًا قاطعًا، قلت لها يا ابنتي لكن أنتِ صغيرة والذي راح راح، لا حزن يدوم، فأبت، وقالت لن أترك بيت أبي!

لقد أحسَّ بالوحشة والألم، يريد أن يمزق نفسه، فقال بغضب: «ومنذ متى ونحن نسمع كلام البنت ونأخذ رأيها يا ملا؟ البنت جاهلة، لا تعرف، نخاف عليها من أولاد الحرام ومن الفتنة».

- لا يا مختار، ما هكذا يقول الشرع، في الإسلام لا يحق للأب أن يجبر ابنته الثيب، المطلقة والأرملة، هي أعلم بحالها، والزواج قبول ورضا، والبنت مصممة على الرفض!

نظر إلى الملا من خلف مكتبه وفي وجهه غمٌ لاحت آياته: «ما الذي فيني يا شيخ عدنان؟ مالٌ، جاه، بساتين، شباب، والصحة حديد، وترفضني وللمرة الثانية؟».

فقال الملا بقنوطٍ وصوت خفيض: «قسمة ونصيب».

غرق المختار في صمتٍ مروعٍ بعد كلمة الملا الأخيرة، القسمة والنصيب، قوةٌ خفيَّة تكسرُ نزواته وأهواءه، تمنى لو كانت هذه القوة رجلًا، لأفرغ بها بارودته، لفتح النار مثل عبد الستار العبوسي عندما أطلق النار على الملك، لن ترجف يده هذه المرة لو واجهها.

لم يرق للملا وهو يرى صاحبه على هذا الحال، فقطع الصمت: «ربما لأنك متزوج، وتعرف ليس كل النساء توافق أن تنزل على ضرةٍ، وبنات الحلال كثر».

كمن تذكر شيئًا، انشرحت ملامح المختار بعد أن انداحت في كدرٍ صادم، ابتسم، ثم قال وهو يرفع مسبحته: «صح، طيب لو وافقت هادية على الزواج بي واشترطت أن لا تنزل على ضرة سأطلق أم حبيب وأتزوجها، هكذا زالت أعذارها، صح؟ أنا تعبت صراحة من المغضوبة أم حبيب، ابنة عمي، زوجها أبي لي رغمًا عني وعمري أربعة عشر، تخيل يا مختار، تزوجت وعمري أربعة عشر؟».

- ما بك يا رجل؟ انهبلت؟ تطلق زوجتك؟ لا تخرب بيتك بيديك.

قام وهو يحمل مسبحته: «العشق يا مولانا؟ تعال، لأعطيك عيني وترى بها كيف أرى هادية، ثم هل سأترك أم حبيب للكلاب؟ مثل السينما المصرية؟ لا، سأبقى أصرف عليها لآخر نفس في العمر».

في تلك اللحظة تجرد المختار من أي صفةٍ، وعاد ذلك المراهق المترع بالرغبات، لم يكن في عمر المراهقة، اقترب من الثلاثين، فاستيقظ فيه حسٌّ نزقٌ في أعماقه، عندما رأى ذات ظهيرة وهو يسير قرب بيت الشيخ وعد الله هادية وهي تخرج وقد بدت ذراعاها ويبدو أنها خرجت لأمر طارئ ولأن الوقت ظهرًا اطمأنت لخلو الطريق وإذا به أمامها، بقي يحدق إليها حتى ظنت أنه أكلها، دخلت بسرعة، تلبست في عقله، وصار يتمثلها ويحلم بها وعزم على الزواج منها، فقد وصل به الحال إلى الهوس، والهبل، طرق باب أبيها، فنظر إليه شزرًا، وقال: «*البنت محكي بأمرها*». لا كلام بعد جملة الأب، لم يكل في تلك الأيام، بعث من يستقصي أخبار الخاطب، يقال له أمين السقاء، من الرطبة، ابن شقيقة الشيخ وعد الله، بعث بعض المعارف، لكن الأمر حُسم، سأل نفسه وقتها: *هل هناك من يسخو على ترك العز والثروة التي تنمو ويرضى بسقاء؟*

-15-

همسات الكون

«من المسلم به أن قلب الرجل لا يخلو من امرأة، مهما كانت صفتها، على الدوام هناك أنثى تروض توحش الرجل، قد تكون أمًّا، أو زوجةً»، قال ذلك الدكتور فراس لمحمد في حديقته التي اعتادا الجلوس فيها أماسي الجُمع، كان يريد أن يصل إلى نقطةٍ عرفها محمد بفطنته، الرجلُ ارتاح له، يلمح مرارًا ويذكر ابنته الكبرى ومحمد يدرك ويحجم، والساعة حاصره ومترقب منتظر، فراوغ محمد في الكلام، ووارب، وتابع الكلمات من قبيل: لم يبقَ شيءٌ، إن شاء الله، فلما خرج ذلك المساء عزم على عدم العودة ثانية، صحيح أنه أنسٌ وحيد في مدينة قاحلة، الدكتور فراس يريد ثمنًا لهذا الأنس، ابنته التي لمحها مرارًا صبية لم تدخل الجامعة بعد، لا تلبي طموحاته التي يحلم بها، فانقطع عن زيارة الدكتور فراس الذي عاتبه مرارًا، ربما تحسر فراس على المشاوي التي أعدها على طول الشهور في الأماسي، غضب الرجلُ، ورأى في صدوده عن ابنته دوافع كثيرة، لا يريد التفكير فيها، فهي لن تأتي إلا بالقلق، قرر أن

يبعث الدكتور محمد إلى المراكز التابعة للمستشفى في أطراف سامراء، وهذا القرار في عُرف ذلك المكان يعتبر عقوبة! صدر أمرًا إداريًّا يقتضي بنقل محمد إلى الأطراف، السبب كان «لمقتضيات المصلحة العامة»، لم يناقش، ما دام لكل شيء ثمنٌ فلماذا لا يدفع؟ يخرج صباحًا بسيارةٍ يستأجرها، تعبر به جسر سامراء ثم تنعطف يمينًا، تسير مقدار عشر دقائق فيصل قريةً فيها مستوصف، وهو عبارة عن مدخل وغرفة واحدة فيها سريرٌ وطاولة عتيقة ومكان صغير لحفظ الأدوية الشحيحة، طبيب وحيدٌ ومعه غصون، الممرضة، والتي سيتزوجها فيما بعد، لم تكن المشكلة الوحيدة هي البُعد، ولا انعدام الإمكانات؛ بل في الأهالي، إنهم يتركون المرأة تموت ولا يأتون بطبيب يكشف عليها ويرى علتها، اصطدم بجدار عالٍ وصارم يقال له «حرام»، وهذه الكلمة عند أهل القرية فضفاضة وواسعة، تتحملُ أشياء لا حصر لها، حتى عندما أوشكت زوجة الفلاح عبد الله على الموت أثر شوكة خبيثة نبتت في قدمها ثم أدت إلى نزفٍ ثم انتفاخٍ وأتت أمها راكضة عنده، وهو من حميته حمل حقيبته وركض معها، وإذا بزوجها يرفض رفضًا قاطعًا أن يكشف عليها، تئن المرأة بطريقة موجعة، تتوسل أمها عبد الله الفلاح، فيرفض، ويقول: «إلا الشرف»، يتمالك محمد نفسه، يعده أن يأتي بشيخ القرية ويتحصل فتوى لكنه مصرٌ، فيسأله محمد محاولًا إفحامه: «أترضى أن تموت؟».

- تموت على طهرٍ وعفةٍ، فتدخل الجنة.

أي جنون ملأ المكان؟ اختلطت دموع أمها بأنينها بصراخ الزوج وتمنعه، توصلوا إلى حلٍّ وهو أن يمدوا غطاءً على شكل ستارة بين الطبيب والمريضة، ويمزقوا مقدار ما يرى الطبيب أماكن الوجع، وفعلوا، فدخلت غصون جنب المريضة، رفعت قدمها ووضعته عند الشق الممزق وصار محمد يداوي الجرح وهو مشمئز.

فيما بعد نمت علاقة هادئة بينه وبين غصون، ليس لجمالها -الذي كان في نظر أمه عاديًّا- إنما في توافق الأمزجة، حتى غدت الصديقة الوحيدة في هذه القطعة المنسية من العالم، يأتي في الصباح فيرى الإفطار جاهزًا، يأكلُ

ويشرب الشاي ويشرع في استقبال المرضى أو الذهاب إلى بيوتهم، ومعه الغطاء، فما إن يرمق الوجوه ويرى فيها تمنعًا من المعاينة تخرج غصون الغطاء وتشرع في نصبه وتجهيزه، يختلس النظر إلى الوجوه المتمنعة فيرى ابتسامات ظفرٍ تلوح على محياهم، يغمز لغصون، التي تضحك وتفهم. أما الخصلة الثانية التي قربت الاثنين فهو الدكتور فراس، الذي يسطو على المستشفى ويحاول أن يستفيد من أي شيء. فكان يريد من غصون صاحبة، وعلاقة غير معروفة الملامح! مصاحبة، زواج، لا تعلم، في اليوم التالي لهذا التمنع أصدر قرار نقلها، وشرعت تحكي له على المدينة وتفاصيلها وبنيتها المجتمعية، وهو وإن كان لم يترك بغداد بشكل نهائيٍّ وحاسم إلا أنه رأى في هذه الممرضة ما يغنيه عن الصخب و«المشكلات»، حتى مقالاته التي ينشرها بشكلٍ دوري ابتعدت عن موضوع الخرافة والأسطورة والأولياء وقضية الحداثة والرجعية، بل صار يكتب في تخصصه، وحتى عندما يريد النوم بعد يوم شاقٍّ وينظر حجم التغييرات التي حدثت من تبدل مكان العملِ إلى دخول غصون في يرجع السبب إلى شيء واحد، المرأة، كما يقول فراس، بثت الحياة في أعماقه القصية، ثم ينام على سعادةٍ، يستيقظ على فيوض من السعادة تنثال وتحيله إلى رجلٍ آخر، صار يشعر بجسده ممتلئًا، بنوع من التكامل الوظيفي، ويجد نفسه يتمتع بقوةٍ باطنةٍ تمنحه الإتقان والعمل، إنها قوة لا تفنى، أما قلبه، فيفيض حنانًا وتصالحًا مع الأشياء حتى الستارة المثقوبة التي تثير حفيظته صارت نوع من المتعة واستدعاء الغمزات من المحبوبة التي تتوافق معه في كل شيء، يشعر برضى وسلام، ويسمع همسات الكون الغائبة على غير السعداء.

«إنه الحب يا مهبول!».

هتف به الدكتور حمد العاني في مسكنه في الأعظمية، ثم بصوت ذي غايةٍ: «وأنا أقول هذا ترك بيتي وذهب».

- لا والله.

- لا تكذب!

-16-

الرحلة «1»

أهل كبيسة مثل باقي القرى والنواحي المتناثرة في هذه الصحراء العريضة التي لولا النهر لهجرها الناس من زمن، يولد فيها الناس، ويتزاوجون، ويرقصون فرحًا إذا أمطرت السماء وأينع الثمر في حقولهم وسرت الأموال في أيديهم عند الحصاد، فيبذخون على أعراسهم ويستعدون لموسم جديد، أما إذا قُتل نفر غازٍ في أنحائهم منذ الترك ثم الإنجليز، فإنهم يقضون ليالي طويلة في الحكي عنه وعن قاتله بصوتٍ مهموس. ثم يتسرب العمر وينتظرون الموت بتسليم ورضا.

في أدبيات الزهاد مثل الشيخ وعد الله ممن يدركون العمر إذا تسرب وأمسى على حافة جرفٍ يعلمون، ولا يفشون هذا العلم إنما يضمرونه في أقاصٍ عميقة، يتأهبون لمواجهة الغيب بخوفٍ داخلي وصمود في الشكل الخارجي، لذلك عندما كان يجهز نفسه للسفر إلى الفلوجة مع فرج ليودعه خادمًا ومتعلمًا كان يوقن أنه لن يعود، يتأمل شكله في المرآة قبل الخروج

لصلاة المغرب وقد شيبته الأحزان والأيَّام. خرج مع فرج إلى المسجد، انقضت الصلاة وبدل أن يتفرغ للصلاة خلا بعبد الخالق هادي، صاحب شاحنة نقل بين كبيسة والفلوجة وبشكل أسبوعي، إذا كان العزم على الرحيل فليتعجل بدل انتظار المسافرين العابرين، والأجرة نفسها، يخرج صباحًا وفي الضحى يكون أو عند الظهيرة على أكثر تقدير في الفلوجة. ساعاتٌ معدودات، وهو بطبعه لا يحب التأجيل أو الانتظار؛ لأنَّ العمر رهانٌ، وقتٌ مصيره التلاشي. حك رأسه عبد الخالق، شاحنته ستحمل الباذنجان غدًا، والشمس إذا تعامدت واشتدت الحرارة هل يتحمل العجوز؟ الأمر في مجمله مشقة.

صارح العجوز بهذه الخواطر، ضحك، ثم قال له: «كأنك تحكي صبيًّا!».

- العفو يا حاج لكن..

قاطعه بعصبية: «السفر كله مشقة، وأنا لا يهمني الحر، أفهمت؟».

فقال ببطء: «خلص حاج، موعدنا الصبح، أستأذن أنا».

- لا والله، لن تذهب، عازمك على العشاء!

أكل السائق حتى امتلأ، ثم رفع صحن المرق إلى فيه وكرع ما تبقى فيه والشيخ وعد يضحك ويردد: «صحة.. صحة».

يدا السائق تلمعان من الزفر الذي لم يذق مثله، والشيخ طوال العشاء يقدم إليه الطعام ويحكي عن رحلاته وعنائه أيَّام الشباب، بينما فرج يأتي بالماء والخبز، وعندما عاد ليأتي بالشاي رأى أمه وجدته تنشجان بصمتٍ، اقترب نحوهما فخطفته هادية عناقًا وتقبيلًا، كان جديدًا عليهم أن يغادرهم الصبيُّ ويذهب إلى خدمة شيخ لا يعرفونه، هذه حكمة الله، ونذر الشيخ، والتي لولاها لمات الصبي. تحول المنزل تلك الليلة إلى منزلٍ يضجُّ باللوعة ويواجه الغيب المبهم. ترك الشيخ خمسمائة دينار، هي كل ما يملك، ومئة دينار عنده، سيتركها للصبي ويدبر أموره هناك بها، غادر السائق ودخل عليهما ليرى المأتم المنصوب.

«يا هادية يا مجنونة، الفلوجة ساعتين علينا، وتبكين؟».

يقول الشيخ، فتجيب بلوعةٍ: «لم يبقَ عندي سوى الصبي، كيف أعيش من دونه؟».

- موجود هذا، وهو فقط سيذهب إلى العلم والخدمة، ثم أين ذهبتُ أنا؟

- الولد دخر لكبرتنا!

يضحك الشيخ، يرى في خروجه غدًا انتصارًا على النفس وجهادًا ووفاء، دخل للنوم وقد جهز كل شيء، أما المرأتان والصبي فلم يناموا، ليس الخوف على فرج ورحلته الغامضة هي الدافع الوحيد إلى هذا البكاء، بل السفرة ذاتها في شاحنةٍ تعيسة تعرفها كل البلدة، الجو يرمي شواظًا لا حرارة فقط، ويقطع الصحراء! الهلاك لا محالة! يستيقظ عند الفجر يصلي ومعه الصبي وهو ابن العاشرة تقريبًا، يتسمعون صوت شاحنة عبد الخالق مدوية، تقف عند الباب، يتوادعون ويركب بتثاقل ويلحقه الصبي بعد أن ترفعه أمه، ثم تبدأ الرحلة.

-17-

الرحلة «2»

عندما ابتعدوا عن البلدة وارتفعت الشمس وبدا الطريق أمامهم صحراويًّا مجدبًا بدأ العجوز يتلو آياتٍ من القرآن ويلفه مع التلاوة الخافتة صمتٌ أسطوري، ويسبح بمسبحته، ثم صار يقول: «*الطريق إلى الله* محفوف *بالشوك والورد*»! وكلما اخترقت الشاحنة المتثاقلة الصحراء أكثر زادت الحرارة، وتحول مكانهم إلى نارٍ محرقةٍ، تغير وجه فرج الله، صار أحمر بفعل الحرارة، لم تكن الشمس وحدها من تسقيهم هذه المرارة، بل ومحرك الشاحنة مع صوته الهادر يبعث حرارة لاذعة، يتصفد جسدُ عبد الخالق عرقًا، من كل جانب حتى إن دشداشته صارت رطبة، وتنز جباههم والشيخ صامتٌ إلا من أذكارٍ وصلوات على الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم.

فقال عبد الخالق للتسلية: «أي شيخ، فرج ذكي يعني وتريده يتعلم ويدرس، مثل خاله محمد؟».

فقال بهدوء: «ولماذا لا يكون ذكيًّا، يحفظُ سورًا كثيرةً من القرآن الكريم، وقد يفتح الله عليه ويكون فقيهًا تقصده الناس من كل مكان، ويكون أجرًا لنا أنا وأبوه الله يرحمه إلى يوم القيامة!».

- وإن لم يفلح بالعلم؟

فقال كاظمًا غيظه: «لا تسود الدنيا عليَّ يا رجل، اذكر الله!».

- فرضًا يا شيخ.

- يكون خادمًا لشيخه وللعلم!

تشتد الحرارة، يضعف سير الشاحنة، يسأل فرج: «ما بها؟».

- عادي!

ترتفع الحرارة إلى رأس الشيخ، ينزُّ عرقًا، يدوخ، يصعب عليه الكلام، جسده كله دبقٌ، وجه أحمر، يحكي فرج معه فلا يرد، ينتبه عبد الخالق، يوقف السيارة، يخرج قنينة الماء، يرش عليه، فيرى في أنفاسه تثاقلًا، يذعر عبد الخالق، يتذكر أبوه عندما نازع ومات، يطفئ الشاحنة، يجر حصيرة موضوعة خلفه، ينزل سريعة ويفرش الحصيرة جنب الشاحنة وقد صارت ظلًّا، يفتح الباب فيرى العجوز غائبًا عن الدنيا، يضع يده على رقبته، فيرى فيه روحًا، ولخفة العجوز ينزله بسهولة على الحصيرة، ينزل فرج باكيًا، ينهره عن البكاء، لا يعرف ما يفعل الناس مع المحتضرين، عندما نازع أبوه جلس هو وإخوته يبكون من حوله، وهكذا إلى أن مات، أما هنا فلا يفعل شيئًا، يهز بالرجل، يصبُّ الماء، ينهر الصبي وفجأة فاق العجوز، تهلل وجه الصبي، إلا أن عبد الخالق أدرك، فبكى، تبادل الأدوار، هو يدمع والصبي يبتسم، عبد الخالق يستحضر أباه، لحظة إفاقة تهللت لها الوجوه، وفجأة رحل. سيرحل الشيخ، يبكي، يقول فرج: «*لمَ* تبكي؟ *جدي* بخير!».

فيقول الشيخ بصعوبة: «**خذ فرج إلى الجامع الكبير على النهر وسل عن شيخ عبد العزيز واترك الصبي عنده، أو أي أحد من المشايخ،**

واتصل على المختار ليبلغ أهلي وولدي محمد بموتي، إذا اقتربنا من الوصول فاحملوا جسدي إلى الفلوجة وادفنوني في مقبرتها وفي عبي مائة دينار، اصرف على الدفن والباقي اتركه لفرج، ومع الفلوس رقم هاتف المختار وابني محمد وصديقه في المستشفى، أما إذا كانت الفلوجة بعيدة فادفنوني في أقرب قرية، مثل الصحابة، يدفنون في الأرض التي يموتون فيها ما دامت الروح ستذهب فلا يهم الجسد».

يعب نفسًا فلا يقدر، يغمغم بكلام غير مفهوم، مد يديه إلى كتف الصبي وضمه، ثم تلاشت حركته، قام فرج يحرك جسد الشيخ فلم تكن به روح. بكى، وعبد الخالق يهون عليه صعد إلى السيارة شغلها لم تشتغل! أي مصيبة هذه، ثم حتى لو اشتغلت من يقنع دوريات الأمن أنَّه لم يقتله مثلًا؟ بعد محاولات علم أن السيارة لن تعمل! أي مأزق هذا الذي انزلق به، جثةٌ في العراء، شمسٌ لاهبةٌ، صبيٌّ يعلو عياطه، وانقطاع في هذه الأرض، نزل من السيارة، نظر باتجاه دياره التي قدم منها، لا شيء، سوى درب خالٍ، نظر باتجاه الفلوجة، الطريق طويلةٌ بعد، ولا فرج يلوح، عقله لم يعد يعمل. لم يكن أمامه سوى أن يشرع في تصليحها عله يجد حلًّا، أما فرج فجلس أمام جثمان جده النحيل، يرمقه، مذعورًا، بعد زوال نوبة البكاء قام ليرى السائق، فرآه منهمكًا في التصليح، سأله: «ماذا جرى؟».

- عطلت!
- أين سنذهب؟
- انتظر.
- وجدي؟

كمن تذكر شيئًا منسيًّا، الجثة، ماذا يفعلُ بها إن طالت القطيعة وهم على هذا الحال؟ وهل تتحمل الجثة هذا الحر؟ تعجل في التصليح والتجريب، ولكن من دون فائدة، شعر أن الوقت يتسرب منه، يداهمه، تتعامد الشمس على نحو جنوني، يطالعها بألم ثم يعود للجثة التي مسها تغيير، رُعب من المشهد، نظر

إلى موضع الشاحنة، انحرفت عند الوقوف ومالت عن الطريق حتى صار من الصعب أن تتضح السيارة المارة، ما الحل؟ وهل يقدر على مشقة الدفن، الحر صهر رأسه ولم يعد قادرًا على حفر أرض صخرية قاسية، يا الله، أين المفر؟ رجلٌ صالح، خرج لله، حسَّ بإلهامٍ، ركض نحو فرج صرخ به: «كن رجلًا، *واجعل جدك يفتخر بك*»! نظر نحوه كالأبله، عيناه تسألان: ماذا أفعل؟

حمل عبد الخالق الجثة ومن خلفه فرج يحملُ الحصيرة حتى وصلا إلى الطريق، أو لنقل إلى منتصفه ينتظرون العابرين، كان عبد الخالق متيقنًا، وبطريقةٍ غريبة أنَّ الله لن يضيع جثة رجل صالح في العراء الموحش، ما إن وصلا إلى المنتصف حتى أتت حافلة مسافرين، توقفت، نزل السائق الأصلع مرعوبًا، صبيٌّ خائف، سائق مرعوب وجثة! نزل السائق، هتف: «ما هذا يا مجانين؟».

- أنقذونا يرحمكم الله، مات صاحبنا، جد الصبي ونريد الوصول إلى الفلوجة، ونصلح الشاحنة!

ندت من السائق صرخة مدوية شقت المدى: «صه! جثة؟ أنت قتلته؟!».

- مات موت الله!
- يا عيني.
- انظر... تعال.
- قالوا للحرامي احلف.

خوفٌ متبادلٌ، وحيرة تسلطت على الفضاء، وإذا بالسائق الأصلع يزعق: «أبعد عن طريقنا».

- اعمل لله.
- أبعد بلاك عنا.
- إكرام الميت دفنه.

وفجأة تدفق الركاب واحدًا تلو الآخر نحو عبد الخالق والصبي والجثة وحالهم المأساوي، تشجع أحدهم وكشف عن الجثة والذي سيظهر فيما بعد أنه طبيب، زكته رائحة الجثة التي فاحت، نادى زوجته، جلبت حقيبة، أخرج غطاءً يلفه على وجهه تفاديًا للرائحة ولبس كفوفًا، رفع رأسه نحو الركاب المتجمهرين، الخائفين والحزانى في الوقت ذاته: «المرحوم مات موت الله، نوبة قلبية، رحمه الله».

تهلل وجه عبد الخالق: «أرأيتم؟».

سكت السائق وتلون وجهه بمسحة حزنٍ.

«لنحملها معكم وننزل في الفلوجة!».

قالها عبد الخالق بتوسل.

فقال الطبيب: «مستحيل، تتعفن».

- عادي، هو ميت!
- نتسمم!
- ما العمل؟
- ندفنه هنا!
- لكن لا طاقة لي بالحفر في الأرض الصخرية!
- كلنا معك!

أي فجيعة نبتت حتى غطى تلك الساعات كل هذا الحزن وكل هذه الفجيعة والانكسار، الذي لم يقتصر على عبد الخالق والصبي، بل عمَّ الركاب الذين تخطوا العشرين، ليتحولوا إلى جملةٍ من الحزانى. تناوبوا على الحفر، بعد أن اختاروا موضعًا يبعد عن الطريق بقليل. صحيح أن الوقت مرَّ ثقيلًا كالرصاص أول الأمر لكن بعد تسوية الحفرة وتعميقها لم يطيلوا، لفوا الجثة بحصيرتها، تداركت امرأة ومدتهم بعباءتها، لفوه بتلك العباءة، اصطف الركاب، كبروا أربعة عليه ثم أنزلوه الحفرة والأعين تحولت إلى حمرٍ بفعل الدموع التي

ذُرفت، حتى السائق الأصلع تبدد غضبه وراح يجهش، أليس لكل واحد منا فجيعة يحتفظ بها، جثة في داخلها يحمل وينتظر تحريضًا حتى يبكي عليها؟ كان الشيخ وعد الله فعل استدعاء بالنسبة إليهم، محملًا بالمرارة والبكاء.

-18-

الرحلة «3»

لم يكن عبد الخالق هادي مجرد سائق مرَّ عابرًا في حياة أبي، بعض الذي نظنهم هوامش في حيواتنا يؤثرون أكثر من كل مركزٍ، من أي بطولةٍ مطلقة، وعلى الرغم من أن أبي رأى السائق ليلة السفر ويوم السفر الطويل ثم غاب إلى الأبد فإنه بقي يتذكر دومًا. كان ذا سوابق غامضة لا يعرف أهل البلدة الفقيرة خفياها، حتى المختار الذي يظنُّ أنه يعرف كل شيء لم يعلم أن عبد الخالق له سجل في السرقة طويل. جاء كبيسة ذات يوم ماطر بشاحنته ومعه امرأة، قصد المسجد، دبر له الملا عدنان غرفة في المسجد إلى أن انقطع المطر، زعم أنه ابن الملا هادي عرفان الكبيسي، وهذا الاسم لا يعرفه كبار السن فضلًا عن المختار إلا أخبار متناثرة تزعم أنه قصد الموصل وكوردستان وبغداد لطلب العلم، واستقر حينًا عند الشيخ عبد الكريم بيارة وعند الشيخ أحمد الراوي في سامراء، ثم انقطعت أخباره.

- فص ملح وذاب.

قال متحسرًا ومكمودًا، حوقل الملا عدنان، وكان عبد الخالق يحترف الكلام احترافًا، ويدعي أخبارًا عن أبيه، وأن له كراماتٍ وأمارات تدلُ على صلاحه، وما انقطاع أخباره إلا دليلًا على الخير العميم الذي كان عليه، ولأنَّه يعلم أمزجة البلدة تنداح في حكايات تثبت زعمه عن أبيه ثم الاختفاء المبهم.

فقال الملا عدنان: «لعله غاب، تخفى عن الخلق، عبادةً، وتنسكًا، وخلاصًا من المعصية، يا أخي كما تعلم هؤلاء الأولياء يخافون من أن تظهر كراماتهم كما تخاف البنت إذا أتتها دورتها، حياءٌ عجيب يتلبسهم، فتراهم ينفرون من الناس، وبطريقةٍ غريبة، ويقصدون الجبال، القرى، الصحاري، البحار، البلاد البعيدة، المنسية، يعلمون صبيةً، وأميين، مجاهيل عند الخلق، معروفون عند الخالق!».

تبسم عبد الخالق من حديث الملا، فقد ظفر بغرفةٍ، وبيت مستكرى بأجرةٍ زهيدةٍ مراعاة لأبيه الولي الصالح الذي لم يلتقِ به أحد، وبدأ بشاحنته المتهالكة يأخذ محاصيل البلدة ويشرق بها ويغرب كيفما اتفق، إلى الأردن، سوريا، بغداد، الفلوجة، أينما يعلم أن الأسعار ارتفعت يقصدها، أما سعر الشراء ليس بخسًا فحسب، بل مخلوطًا ببكائية وشكاية واستجداء، جعلت المختار ينوء عن بيعه أي محصول. فلما علم بتمنع المختار أدرك أن قواه بدأت تتبعثر، وحججه خارت مثل أي كذبةٍ تجري في الآفاق بين شروق الشمس وغروبها. لم يكن من حلٍ أمامه سوى أن يقصد أبا حبيب متضرعًا وخاضعًا، يقصد دكانه –أو مجلسه كما يحلو للمختار تسميته– العامر بالقهوة المرة والتمر، يذرف مقدمات الخضوع، لكن المختار يصد عنه صدًّا عجيبًا، فقال وهو ينفث في وجهه الدخان: «خلوق أنا أعرفك، أنت تكذب، وكذبك كثيرٌ، تخلط الحابل بالنابل، وتظن أنني مغفل، لكن قلت لأترك هذا الصبي أريد أن أعرف إلى أين يصل، زورت تاريخ أهلك، قلنا ماشي، استأجرت بيت حمزة الكواء بتراب الفلوس، قلت مسكين، لكن تسرقنا؟!».

– أعوذ بالله...

قاطعه: «لا تحلف، أنا دربي إلى الشام شهري، وأعرف الأسعار وكيف تسير الأمور، لماذا؟».

- أريد أن أكون عونًا لك.
- لا تنفعني.
- خادمًا؟
- لا أحب الكاذبين.
- الله غفور رحيم، وأنت كريم أيضًا.
- وشديد العقاب.
- أنا دخيلٌ عندك.

رمقه بملل: «لمَ تستغل طيبتنا؟».

اتفقا على أن يكون تحت يد المختار، اتفاق من دون بندٍ أو شرط، إنما طاعةٌ لا نقاش فيها، يشتري من المختار كما يحلو له أن يبيع، حتى لو كبده خسائر، فالتعويض موفور من جلود الفلاحين الآخرين، ثم قرر المختار بعد رحلة للشام أن يتعامل مع تاجر هناك، يبيعه مباشرة، ويتفقون من الهاتف، وما على عبد الخالق إلا التوصيل وبالمجان، فلما امتعض عبد الخالق بعدما دعس المختار واستغله أبشع استغلال وظهر منه تأففًا: «هذه ليس منةً وهبةً منك، هذا تكفير، وسماح لك للعمل في البلدة الآمنة، وإلا سلمتك إلى القاضي، وأنت تعرف، أمن وقاضٍ وحقوق ناس وشكاوٍ كثيرة، أنت في غنى عنها».

يسكت عبد الخالق على تمادي المختار، حتى عندما بعث وراء حمزة الكواء وطلب منه أن يضاعف أجرة بيته عليه لم يعترض، لم يبقَ سوى امتعاض في الأعماق يتمنى لو يترجمه يوما.

هكذا كان السائق، وهو وإن أظهر حزنًا على الشيخ فهو تذكر أباه، الحقيقي، لا الذي اختلقه ودسه في ذهن الملا عدنان ثم عرف طريقه إلى البلدة، وما إن صعد وجنبه فرج الله تاركين الشاحنة على أن يذهب إلى

الفلوجة ويأتي بمن يصلحها حتى ظهرت سيماء لم يرتح لها الركابُ. أولها كيس المال، مائة دينار دسها في جيبه بعد أن أخرجها من جيب الشيخ وعد قبل دفنه، فقال فرج الله: «عم، أعطني الفلوس!».

بدا صوته قويًّا، جهورًا، حتى سمعه جل من في الحافلة، وأحسَّ عبد الهادي أن الصبيَّ شدة المراس.

فقال مغمغمًا: «أي فلوس؟».

- فلوس جدي التي أخرجتها من ثوبه ورقم هاتف خالي محمد والمختار!

قالها فرج بصوت عالٍ وعلى مسمع من الحاضرين حتى إنه ارتبك، لم يعرف أن يجيب بديهة –وهذه من مشكلاته التي يعانيها إذا فوجئ بشيء لا يستدرك– فقالت المرأة التي ناولتهم العباءة عند الدفن وتجلس على المقعدين المحاذين لهما مع زوجها مخاطبة الصبي: «يعني الرجل ليس عمك؟».

فقال بصوتٍ عالٍ: «لا!».

فقال عبد الخالق بضجر: «وأنت ما دخلك يا امرأة؟».

نظرت إليه بوجه كله هم وحيرة، ثم زعقت: «الولد ما علاقتك به؟».

- لمَ تحشرين نفسك؟

فقال زوجها بغضب: «لا تقلل الأدب أيها الرجل، قد تكون لصًّا!».

نظر حوله، رأى الجلاس كلهم يرمقونه وبتوثبٍ: «كيف يعني لص، الولد ابن عمي، وجده سافر معي بالشاحنة وجاء أجله، وغدًا أعود به إن شاء الله!».

في المقعد الأمامي كان كهلًا جذبته الأصوات وسمع الحوار، سألَ فرج مباشرة: «أتعرفه؟».

- لا!

- متى رأيته أول مرة؟

- البارحة!

قاطعهم: «طفل... لا يعرف».

قالت المرأة بغضب مكتوم: «اتركنا نسمع!».

عاد الرجل يسأله: «كم كان يحمل جدك من المال؟».

- مائة دينار، ومعه ورقة فيها أرقام هواتف!

- أين المائة دينار؟

أشار إلى عبد الخالق، فصرخ: «أنا يا ابن الكلب بعد كل الذي عملته؟».

حاروا ماذا يفعلون معه، إنهم في طريقٍ طويلةٍ وأمامهم ساعة زمن على الوصول، ترامق الركاب، أيقنوا أن الجالس معهم مجنونٌ، سارق محترف، وربما قاتل، دب الخوف والحذر، تصاعدت الأنفاس وانتظروا أقرب سيارة أمنٍ تلوح، وعبد الخالق توجل، ثم همس في أذن الصبي: «لا تسأل».

عافت نفس فرج هذا الرجل بأنفاسه الكريهة، فقال بصوت مسموع: «أريد أن أتصل بأمي!».

- عندما نصل.

ثم شرع في فرج في بكاء، أخذته المرأة في حضنها، استشعر عبد الخالق بالوجوه تترامق وتتغامز، الحافلة مملوءة بالركاب، أجساد متراكمة والباب بعيد، لم يفكر كثيرًا عندما تقافز من حوله عليه، شدوا يده وهو يصرخ، فتشوه بسرعة فأخرجوا المائة دينار، وورقة فيها أرقام هاتف، بصقت عليه المرأة، وهتف بهم هو: «لست لصًّا، أنتم لا تعرفون القصة!».

ناولهم السائق حبلًا عنده للضرورة، ربطوه ورموه آخر الحافلة مثل شوال طحين، يتحرك ويرفس برجليه مثل خروف.

-19-

أنت شيخ عبد العزيز؟

الوطن، اسم جامع لتفاصيل كثيرة تنطوي تحته، وعلى بساطة هذه المفردة وشهرتها إلا أنها تبقى غامضة وعصية على التعريف، ما وطن المرء؟ منبته، موته، ذاكرته، الأمان، حتى لو كان في بلدٍ بعيدٍ؟ كثيرة هي خواطر جدي فرج وهو يرى الفلوجة لأوَّل مرة، صحيح أنها ستغدو فيما بعد روحه ومأواه، بل ولن ينظر إليها إلا كما نظر نزار قباني إلى بيته الدمشقي: «*هل تعرفون معنى أن يسكن الإنسان في قارورة عطر؟ بيتنا كان تلك القارورة*»، أما أبي فهذه المدينة هي قارورة العطر التي سكبت له رحيقها ومنحته روحها، أما لحظة الدخول فهي خوفٌ، وترقبٌ وانتظار، يقف الأتوبيس عند مركز الشرطة، وعبد الخالق على الحال ذات، ينزل السائق الأصلع وخلفه زوج صاحبة العباءة وهم من سكان المدينة، وفرج يترقب خوفًا ولوعةً، لم يطل الانتظار، ربع ساعة عندما صعد شرطيان الحافلة وأخذا عبد الخالق ونزلت المرأة ومعها فرج الله، بينما السائق صعد ليوصل باقي الركاب.

قال للمرأة: «الصبي أمانة عندك إلى أن يأتي أهله».

- الأمان بالله.

هدرت السيارة، بقيت واقفة في باب مركز الشرطة تنتظر زوجها أن يناديها لتدخل فرج الله، أضناها العطش، تمشت إلى دكانٍ قريب، يبعد أمتارًا، بينما خاف فرج، نظر إلى الشرطيين الواقفين عند الباب، وإلى المرأة التي تهادت نحو الدكان، مرت لحظات قلقة عصبية، وفكر أن السجن سيكون مصيره، تدافعت الأفكار مثل سيلٍ عارمٍ وركض عكس الاتجاه الذي ذهبت فيه المرأة، قطع الشارع، دخل في زقاقٍ ضيق مدهوش من سعة المدينة وتفاصيلها والتي تختلف جذريًّا عن بلدته، إنه يرى مدينةً للمرة الأولى، يشق الطرق، وكلما ابتعد أحس بالخوف يتمدد، أي الجهات يقصد والشرطة قد تلحقه، إنه تائه، جائع، أذن المغرب، لمح مسجدًا، دخل راكضًا، توضأ كما علمه جده، ودخل يصلي، انقضت الصلاة فقصد الإمام: «أنت شيخ عبد العزيز!».

تفاجأ الإمام من جرأة الصبي الذي لا يتناسب مع مظهره، علم أن وراءه حكاية، فاستدرك: «أي عبد العزيز منهم؟».

- وكم واحدًا هنا؟

ابتسم: «كثيرون».

-لا بدَّ أن يكون واحدًا منهم!

عادت الابتسامة إلى الإمام:

- تعال نتكلم خارج المسجد.

-20-

لوعة

وأنا أصل إلى هذا الحد من الحكاية وأراني قد تطرفتُ وابتعدتُ وصرت أسأل نفسي مع أبي الذي خطرت له هذه الأسئلة: الأحزان ما هي، ما مدتها وكيف تفترش في المنازل حتى تصبح جزءًا منها ومن ذاكرتها، فإذا هي لا تعرف إلا بهذه الذاكرة، وهذا الشيء الهلامي المخزون في الأقاصي العميقة؟ إنها مثل غيمةٍ تخيمُ، تومضُ وتلمح أنها باقية.

***

أنزل المختار سماعة الهاتف بقلقٍ وحيرة، ثم سهم كمن يسترجع شيئًا، قلب بالدفتر المكتوب فيه أرقام هواتف كثيرة، نقر رقمًا وجده من غير عناء: «السلام عليكم، أستطيع أن أحكي مع الدكتور محمد وعد الكبيسي؟ متى يأتي؟ أها، إذا أتى قل له يتصل بي سريعًا، أمر يتعلق بأهله... قل له مختار كبيسة أبو حبيب... سلام».

أعاد السماعة ثم قصد المسجد، دخله وذهب إلى البيت الملحق، طرق الباب وهو على حالٍ من التوتر، خرج الملا عدنان، تساءل الملا عن الزيارة ضحى: «الأخبار لا تسر يا ملا، الشرطة في الفلوجة ألقت القبض على عبد الخالق هادي بتهمة سرقة عجوز الشؤم، وعد الله، وهو الآن في الحبس...».

قاطعه الملا على عادته بضجر: «لا حول ولا قوة إلا بالله، مع الأسف عليه والله، يستحق السجن».

- ليس هذا الخبر، ليذهب إلى الجحيم، سرق العجوز وهو ميت؟
- ماذا؟
- مات العجوز في الطريق ودفنه وسرق منه مائة دينار!

وشدد المختار على الكلمة الأخيرة باعتبارها أهم ما في الحكاية.

- لا إله إلا الله، مائة دينار ضربة واحدة! ومن قال إن العجوز مات؟ ربما قتله!

فقال بحدة: «وهل أنا محقق، اتصلوا بي الشرطة وقالوا لنبلغ أهله».

- هيا، لنذهب إليهم.
- هناك شيء آخر قالته الشرطة.

تجمد الملا كالتمثال مترقبًا: «ماذا؟».

- الصبي، ابن هادية..

ندت صرخة منه: «مات!».

- لا، ضاع في المدينة.

حارا، أين يذهبان وولدهم الكبير في بغداد، والأدهى أن المختار يرفض الذهاب إلى بيته، فما زالت المرارة في قلبه منذ رفضته للمرة الثالثة!

- لكنه موت يا أبا حبيب!
- الله يغفر له لكنه لم يترك حسنةً وراءه!

وصل الملا إلى بيت الشيخ وعد الله يقدم رجلًا ويرجع أخرى، هو لم يجرب مثل هذه المواقف، منذ خلقه الله وهو بين هيت وراوه وكبيسة، والناس فيها متكتلون على بعضهم، يولدون ويعملون ويشيخون ثم يموتون بين أهلهم، يأتي ويجد الميت قد فاضت روحه، يغسله ويصلي عليه، أما أن يموت في صحراء ويأتي من يبلغهم بالهاتف، وعليه أن يخبر أهله بموته! كيف تقنعهم ما حصل وجرى، ورأى المهمة تتعاظم كلما دنا إلى البيت، ثم حدث نفسه: عياطٌ ومصاب، وهذه سنة الحياة، ميلاد ثم حياة تعيسة ثم موت! خرجت أم هادية، خارت قواها بطريقة غريبة، يقولون القلب ينبئ، لم يقتنع الملا إلا لحظتها.

سألته: «ما به أبو محمد؟».

تحرج، تردد، قال ببطء: «أنتِ امرأة مؤمنة...!».

قاطعته: «مات؟».

فقال بأسى: «عظم الله أجركم وبارك في محمد وهادية».

- الصبي؟

- بخير.

فانطلق منها صوتٌ مزلزل، جمعت البلدة كلها، تدفق الناس من قرى وأرياف مجاورة، وانطلقت سماعة المسجد تشق المدى: «بسم الله الرحمن الرحيم، كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، انتقل إلى رحمة الله ورضوانه، الشيخ وعد الله بن عبد الرحيم علوان الكبيسي، وسيقام العزاء في داره ولثلاثة أيَّام، إلى روحه وأرواح المسلمين الفاتحة»، تكرر النداء ثلاثًا.

-21-

الولد ذاب في المدينة

«الحمد لله الذي تفرد بالبقاء، وكتب على عباده الفناء، فجعل المقام بها قصيرًا، والمؤمن فيها محاصرًا أسيرًا، والسعيد من ترك فيها عملًا صالحًا كبيرًا، والصلاة والسلام على النبي المختار، وآل بيته الأخيار، وصحابته من المهاجرين والأنصار.

وبعد..

كيف حالك أخي محمد، عسى أن تكون بخير وصحة وعافية، أرأيتم كيف طرقت المصائب بابنا ونحن صابرون ولا شيء سواه، فنحمده على السراء والضراء، مات أبونا في طريق الفلوجة، ودُفن على قارعة الطريق، وكان معه «فرج الله»، فسرق السائق أموال أبيك التي يحملها معه، فلما عرف من معه أن السائق الظالم قد سرق أبانا المتوفى سلموه إلى الأمن، لكن المشكلة ليس هنا فحسب، لأن الموتَ قدرٌ مكتوب، رضينا به، المشكلة أن الولد فرج ضاع في مدينة الفلوجة ولم نسمع

عنه خبرًا، اتصلنا بالشرطة الذين ألقوا القبض على السائق، فقالوا لم يروا طفلًا، إننا في ضياعٍ حقيقيٍّ، وجع لا يعرف، وكلما اتصلنا بالمستشفى قالوا مسافر إلى بيروت أو لا نعلم، وهذه أيام عشرة مرت منذ أن مات أبوك -رحمه الله- واختفى الطفل ولم نسمع عنك خبرًا، أرجو أن تجيب في القريب العاجل، رسالتي هذه أبعثها بيد الملا عدنان إمام المسجد الذي تطوع بالسفر إلى بغداد، ويحمل من رسالتي هذه نسختين، واحدة سيتركها في موقعك، وواحدة سيبعثها إلى بيروت بعد أن يأخذ عنوانك، كما أعلمته بصديقك الدكتور حمد العاني وشقته التي في الأعظمية، مؤكد أنه يعرف عنك ما لا نعرفه. أمك مريضة، وأنا أتوق للبحث عن فرج في الفلوجة وأحتاج إلى قدومك. أختم رسالتي بالدعاء لك بدوام الصحة والتوفيق، وأن يرحم أبانا رحمة شاملة، إنه سميع مجيب.

أختك: هادية وعد الله الكبيسي

كبيسة: 15/3/1972م».

أكمل الملا عدنان كتابة الرسالة التي أملتها عليه هادية وصاغها بأسلوبه، كانا يجلسان في باحة المسجد، هادية غارقة في سوادها وجالسة على مقعدٍ وأمامها الملا الذي لم يبقَ سواه يتابع قضيتها، تسرب الناس والأقارب من حولها، وعاد كل لشغله، حتى ابن خالتها عبد الله العلي الذي تجشم عناء السفر إلى الفلوجة بعد الحادثة لم يظفر بشيء، فقد عرف أن التحقيقات مستمرة مع عبد الخالق، الذي أنكر معرفة مكان الصبي، وترك رقم المختار في المركز إذا جد جديد يتصلون به. تطوع الملا لإيصال الرسالة، ناولته هادية مالًا وإذا به ينفر: «عيب عليكِ...».

- أجرة الطريق.
- الخير كثير والحمد لله.

سكتت لما رأت منه تمنعًا حقيقيًّا. تفرس وجهها ثم قال ببطء: «أبو حبيب يسأل عنكِ...».

- لم نره وهو المختار.
- طبعًا لن تريه، كم مرة تقدم ويعود خائبًا، الإنسان له كرامة!

***

وسافر الملا، وعاد بعد يومين وإذا بالخيبة تتضاعف، الولد ذاب في المدينة ولا أثر له، لم يره أحد، حتى المرأة صاحبة العباءة لم تسمع عنه شيئًا، مؤكد أنه خاف، وما عليها إلا أن تنتظر عودة الدكتور محمد من بيروت.

-22-

سعادة المختار

أصعب لحظات الفقد هي طريق التعافي، الخروج من المأزق، العبور إلى التعود ثم الرتابة، صحيح أن الموت يغرس فينا لوعةً هائلة، تنغرس بالمنازل مثل نبوت، ثم تدخل لتصل إلى التفاصيل، الأشياء، الذاكرة، الزمن. هادية وأمها عليهما تخطي كل هذا والبدء في رحلةٍ مجهولة، أين فرج؟ لا رجلَ معهما، واثنان حملا على عاتقهما عناء السفر، ولم يأتيا بنتيجةٍ، أيقنت هادية أنها مقبلةٌ على خوض غمار بحرٍ شاقٍ، تنثال الأفكار، ولا مخرج يبرز، محمد غاب، وهذه الغيابات أثارت في نفسها يأسًا مريرًا، تمطى حتى شعرت أنه تاه الأرجاء، ثم عاد تفكيرها للرجل، «ثمة أحدهم ينتظر!»، هكذا قالت تسواهن زوجة الملا عدنان في زيارتها الأخيرة بعد عودته من بغداد، وكانت تلمح إلى المختار الذي انقطع عنهم، وهو ما زال يموت شوقًا إليها، لم يقطع الأمل، صبورٌ مثل جملٍ. تنظر إلى أمها فتراها دائمة الفتور. تفكر بالمصاير التي تتراءى غائمة، تتمدد في الفراش وتستدعي النوم، المختار! تعيد صورته في

ذاكرتها، هو ليس كبير السن كما تظن، وصل إلى الأربعين أو أكبر بقليل، ذكيٌّ، تاجر، فلمَ صدت عنه كل تلك المدة؟ لا تريد أن تنسى، لتتذكر لماذا رفضته رفضًا صارمًا، متزوج، وله ثلاث ذكور أصغرهم في العاشرة وبنتان صغيرتان، هذه مشكلة، هي الأخرى أرملة، ومعها ولد.. ولد؟ ولكنه ضاع في أماكن لا تعرفها. في الصباح قصدت بيت الملا عدنان وتلت عليه وعلى تسواهن قائمة الشروط والطلبات حتى توافق على الاقتران بالمختار تجلت في العين سعادة غير عادية، يعرف صديقه الذي لن تسعه الدنيا، وما إن استوعب ما تقول حتى تردد، يذهب يبحث عن فرج الله، لا عرس إلى أن نجد فرج، تسكن في بيت وحدها، والذي جعل الرجل فاغرًا فاه هو شرطها أن يكون مهرًا مقدمًا ألف دينار ومؤخره ألفين!

فتساءل الملا: «وما الذي يجبر الرجل على القبول؟ أنت التي تحتاجينه الآن، موقفك ليس قويًّا كما تتخيلين!».

تغيرت نبرة هادية، وبدت عارفة بخفايا المختار وجنونه بها: «والله يا ملا لن أجبر أحدًا، هو الذي طرق الباب، وكاد يقتل نفسه، وبعث واسطة إثر واسطة، من يعجبه يطرق الباب، أم لأني يتيمة وأرملة يأكلني؟».

فقال باسمًا: «لكن الزواج أخذ وعطا، قبول ورضا، وما دام الله يسر ووافقت، خففي الشرط خفف الله عن أبيك في تربته!».

- هذا الذي عندي.

لبس غطاء رأسه الأبيض وانطلق إلى المختار الذي كان جالسًا خلف طاولته ويحرك كوب الشاي بملٍ، سلم الملا ثم قال: «عندي خبر تدفع عمرك له».

رفع كوب الشاي بالضجر ذاته: «لم يبق ما يستحق الدفع؛ ما دام الغوالي لم يشترونا!».

- أنا آتٍ من عند الغالين ذاتهم.

فقال بجنون: «هادية؟».

- على مهلك يا مختار، ما بك مثل امرأة تائهة على الطريق، اهدأ قليلًا.
- قل بسرعة.
- السيدة هادية وافقت على الزواج، بشروط عدة...

قاطعه: «موافق!».

- اسمعها أولًا.
- موافق!

-23-

نزق المختار وتصابيه

لو كان للسعادة شكلٌ لكانت على هيئة المختار أبي حبيب لحظة عقد قرانه على هادية، تورد وجهه بشكلٍ غريب، دماءٌ جديدة من الفرح منحت الوجه صفاءً شاملًا، في الصباح ذاته خرج مسرعًا، لبس دشداشته البيضاء الناصعة، وشماغه الأحمر، ثم مسح وجهه ويديه بالمسك، وبخر نفسه، مما جعل زوجته أم حبيب تنظر بريبة، «قلب المرأة يعرف»، قال لنفسه، سألته بحدة: «أين؟».

فقال وهو يدندن بأغنية: «مشوار من المشاوير الكثيرة، وسعي في الخير».

فقالت وهي تأخذ منه البخور: «عسى لا يكون مشوارًا مع الأرامل والمطلقات والعانسات»!

ينظر إليها بغضب مصطنع: «نكدية.. لا تستطيعين إلا أن تنكدي يومي... وهل الخير يعرف مطلقة!».

خرج ليجد على الباب الملا عدنان، أبا علي، أبا مصطفى، الحاج حيدر، أبا إسماعيل، مخلف النزار، ابن حمزة الكواء، منير القصاب، ومن خلفه عمال الفرن يحملون الكنافة والزلابية. استغرب مخلف النزار من الحلويات والحزن ما زال في المنزل فائرًا، وإذا بالمختار يأبى: «عرس، والحي أبغى من الميت».

- لا يصح!

- لمَ؟ حلويات وليس عرسًا!

فقال الملا: «أقترح أن الحلويات توضع في مجلسك، نعقد القران ونعود لنأكل الحلويات فيه، أفضل يا شيخ الشباب».

فقال بتسليم: «لن أرد لكم قولًا».

وصلوا إلى البيت، كان في استقبالهم عبد الله العلي، ليس لأنه آخر رجال العائلة الكبيرة المتناثرة في القرى مثل زجاج مكسور، بل لقربه من أم هادية ومودته التي يخالطها شيء من المصالح مع المختار، جلسوا، ترحموا على الشيخ وعد الله وقرأوا الفاتحة والمختار أكثرهم إظهارًا للتأثر في تلك اللحظة، حتى تمتم: «*كان من الصالحين... رحمه الله*»، وقبل عقد القران خرجت عليهم هادية مخمرة، تبدت على وجهٍ مختلفٍ، فالمصائب المتتالية منحتها قوةً وتماسكًا، تلت الشروط من مهرٍ معجل ومؤخرٍ، وعدم إقامة أي عرس أو مظاهر الفرح قبل العثور على ولدها، والأهم السفر إلى الفلوجة للبحث عن الطفل فرج. انثالت حالة غريبة على الحاضرين، تجمع بين التعجب والملل والاستنكار، حتى إن ابن حمزة الكواء همس في أذن منير: «*نسوان آخر زمن*»!

المختار لم يكن له قدرة على الرد، كان مسكونًا بها، خارجًا عن أطر العالم، يشعر بابتسامةٍ عريضةٍ يمنحُها الكون له، تشابكت الأيدي مع عبد الله العلي ورددا خلف الملا الرضا والقبول.

خرج الرجال إلى مكتب المختار لتناول الحلويات بينما هو بقي يريد أن يخلو بها، ينظر إلى الحصن المنيع الذي انتظره طويلًا، وكيف أن الأقدار

منحته هذه الفرصة، يحسُ أنه محظوظ، لا الآن فقط، منذ ولد، منذ خدم الملوك وصار شاهدًا على التاريخ ولم يدنس يده بدمائهم الطاهرة، الإرادة الإلهية منحته النظر، وليكون شاهدًا، والآن يعيش المنح الإلهية، الهبات، يرمق السعادة التي تنثال، تقدم نحوها مسك يديها، خجلت، هي ذاتها، بجموحها وتمنعها، ألم يقولوا ما إن يعشق شخص ما حتى تدخل الحمائم إلى داره بهدوءٍ وتنتظر؟ لم ينتبه إلى أم هادية التي وقفت خلفها، قبل يديها ووعدها أن يكون عونًا. ثم تواعدا أن يتلقيا في الليل وخرج وكأن به مسًّا، بينما هادية ابتسمت من جنونه لأول مرة.

-24-

نصيحة العراف

لافتة كبيرة وبخط الرقعة تربعت أعلى باب المحل: «كباب الفلوجة الشهير»، جلس على طاولةٍ على الرصيف أمام المحل ومعه فرج الله، أصوات البائعة تعلو وضجيج السوق يبلغ مداه، نادى الرجل العاملَ الذي يخدم الزبائن: «نفر كباب».

مجلسهما على الرصيف أمام عين صاحب المحل، الذي لفت نظره ملا عادل والطفل الذي يجلس أمامه، بل ترك شغله وحساباته وبقي يرمقهما بعين متسائلة. امتد صمت مبهم بين الملا وفرج الله. ما إن أكمل العامل شوي الكباب حتى تلقفه صاحب المحل منه وأخذه إلى الطاولة مرحبًا، قام الملا باحترام فتدارك: «والله ما تقوم... استرح ملا».

شرع فرج في أخذ الخبز بخجلٍ وبعد تشجيع من الرجلين قطع خبزًا ووضع فيه قطعة كباب وعليها سلطة وأخذ يزدرد ببطء، أتى العامل بلبنٍ، لم

يكن فرج أكالًا، ولا شرهًا، يضع اللقمة في فمه، يلوكها رويدًا رويدًا، ثم يتبعها بشرفة لبن. قال صاحب المحل وهو يرمق فرج الله: «غريب يا شيخ».

- لا غريب سوى إبليس، ما الغرابة؟

- ليس من عادتك أن تأتي للعشاء في المطاعم!

- حقيقة، أم العيال عند أهلها، وجاءنا ضيف حلو، يجب أن نقوم بالواجب!

- وأنت لمَ لا تأكل؟

- شبعان.

- تعال نشرب شاي ونترك الضيف يأكل على راحته.

قاما إلى طاولة صاحب المحل، بينما عين صاحب المحل بقيت على فرج الله: «شيخنا، من الصبي؟».

قال بصوت خفيض: «ضائع!».

لم يكن من صاحب المحل إلا أن بادر كعادته عندما يجدون ضائعًا وهو الذي يعرفه ملا عادل: «اتركه عندي، إلى أن يعثر عليه أهله، وأنت تعرف الحاجة ونذورها التي لا تنتهي، عسى الله أن يمطرنا برحمته».

فقال الملا بسرور: «على بركة الله».

لم يكن بوسع الملا أن يكفلَ فرج خاصة في هذا الوقت، فزوجته التي لا تستقبل أحدًا بوجه طلق قد ملت ضيوفه الذين لا ينقطعون عنه، فما بالك بطفل ضائعٍ، لا قدرة له على المشاحنة، بل أن زوجته مهبولة، كما يقول، ليس بعيدًا أن تتهمه بالزواج من أخرى، والإنجاب منها سرًّا، كما أن المتعارف عليه في المحلة؛ شؤون الأطفال وخدمتهم وتلبية احتياجاتهم هو من اختصاص الحاجة ترفة الصالح، زوجة الحاج غانم نعيم صاحب مطعم ومحل «كباب الفلوجة» الشهير، ليس لرغبتها الجامحة في فعل الخير فحسب، بل لأن عرافًا -أو وليًّا كما تزعمُ- من بلادٍ بعيدةٍ زارها يومًا وطلبت منه أطفالًا وسبب التأخر، فنصحها بكفالة اليتامى وتلبية حاجة الصبية الفقراء، وبهذه النية

الصالحة سيرزقها الله البنين والبنات، وهي إذ تنفق وتتضرع إلى الله تزور الأولياء والعارفين للذرية التي لم تأتها. نظر ملا عادل إلى فرج الله وقد أكمل، قام عنده: «ستذهب مع عم غانم، تبات عنده، وهو سيعتني بك ويأخذك إلى ما تريد».

يصمت فرج الله، يشعر بتعبٍ وألم في قدميه، وينظر إلى الحاج غانم نعيم، في وجهه مسحة من طيبة، لحية ممتدة بيضاء تشي بوصوله إلى الستين، ووجه مدور، وابتسامة عريضة تملأه.

-25-

تعويض إلهيٌّ

نظرة طويلة صامتة نحو الحاجة ترفة، متأملًا وحذرًا ومتعبًا، لم تكن الحاجة هذه قد بلغت العمر الذي يتخيله القارئ بعمر جدة فرج أم هادية مثلًا، بل هي جاوزت الثلاثين بقليلٍ، بعمر أم فرج أو أصغر بقليل إذا حسبنا الأسى الذي طوق هادية وما نهب من وجهها وعمرها، وهي الأخرى ذُعرت لأول وهلةٍ، وشعرت أن الصبي قطعة منها، شمت رائحته، زكمتها رائحة العرق. كانت تعرف كيف تعامل الصبية بحكم خبرتها، قادته بيدٍ ناعمة تشبه نبعًا لحمامٍ خارجيٍّ دعكته دعكًا، وصوبنت رأسه مرارًا، وغسلته، ثم أتت بملابس جديدة، كان يوشك على الهلاك. قادته إلى سريرٍ في غرفةٍ مجاورة لغرفتها، أول مرة يعرف فرج الله السرير. نام.

عادت لزوجها، سألته عن قصته..

– لا أعرف، عثر عليه الملا عادل، ويبدو أنه كالعادة خاف من زوجته وأتى به إليَّ.

حملت صفيحة العشاء ووضعتها على طاولة المطبخ أمام غانم نعيم وأتت بدلو الماء البارد: «تعرف يا حاج، صحيح أن هذا الملا البخيل لا يكف عن جلب ضيوفه إليك لكن لأول مرة يأتي بضيفٍ يدخل قلبي إلى هذا الحد».

- وأنا والله دخل قلبي، لكنه واعٍ، وبالتأكيد يعرف أهله.

فقالت بهيام: «أشعر أن هذا الصبي تعويض إلهي، تخيل يا غانم لو أن ولدنا بعمره، يخرج معك، يساعدك، يتعلم القرآن والحساب، ويعود مثل ما عدتما توًّا، أحممه، تأكلان، ثم بأسى آه لو كان لي ولد!».

أنزل غانم اللقمة من فمه، رأى عينيها تذرفان، فقال ببطء: «حبيبتي، أكلما رأيتِ طفلًا بكيتِ؟ على هذا الحساب ستبكين أكثر من كلِّ أمهات العالم!».

- لمَ يا غانم أنا من دون النساء؟

قام من مكانه، أحاطها بذراعيه وقبل رأسها: «كل شيء عنده بمقدار».

لم تنم ترفة تلك الليلة، قامت بعد نوم زوجها إلى الغرفة التي يهجع فيها فرج الله، اقتربت منه، تأملت وجهه الأليف، قعدت عنده، صارت تمسدُ كتفه، دموعها تهطلُ وهي صامتة تتأمل الوجه. في الصباح تناول غانم فطوره وخرج على أن يعود ظهرًا ليرى الطفل. أيقظته، غسل وجهه وجلس للإفطار. استغرب من نظرتها، حنوٌ يشبه هادية وربما أكثر، تقترب منه حتى تكاد تقبله، وكم كانت تشتاق أن تضمه وتغادر العالم! سألته عن أمه وأبيه وجده وعائلته كلها، كان يحبو نحو التاسعة، سرد لها عن بلدته ومجيئه وموت جده، وعن المال الذي سرق ورغبة جده أن يدرس العلم.

- يعني كدت تموت؟

- أي، يقول جدي لولا النذر الذي قاله في مسجد الفاروق لمتُّ!

بتعجبٍ: «يا الله».

- أي.

- والآن تريد العودة لأمك أم الدراسة عند شيخ؟

- أمي!
- لمَ؟
- لأن جدي مات!
- وما دخل هذا بهذا؟
- أخاف، وأمي وحدها.
- ما رأيك أن تبقى عندي، أصرف عليك، وأطعمك، وتدرس في المدرسة الدينية عند الشيوخ، وتبعث إلى أمك رسائل، ومنه يرتاح جدك في قبره؟
- لا، أريد أن أرجع لأمي!

في تلك اللحظة قررت ترفة في أعماقها، أن تحتفظ بالصبي ما شاء الله، تعلمه، وتعده ولدها، وتبعث بين الفينة والأخرى مكتوبًا إلى أمه! تكسب أجرًا ويكون تعويضًا ولو بسيطًا على انتظارها.

-26-

بلاد العرب أوطاني

تقضي ترفة وقتها مستغرقة في الذكريات، اليوم الثالث لفرج في حياتها، وما إن دخل الصبي بيتها حتى تشوشت، وانحرف النسق الذي تعيش فيه، حتى موعدها مع شيخ محيي، شيخ الطريقة الرفاعية الذي سيهبط في أبي غريب قرب الخان لن تذهب إليه، فقد استبد بها اليأسُ درجة لا تطاق، ما الفائدة من طرق باب الأولياء كما تفعل من سنوات؟ وهي نفسها قبل سنوات وصلت إلى مكة، حاجةً، غسلت بماء زمزم، وطافت حول الكعبة ليلة كاملة وهي تدعو، فلم تُرزق؟ أبعد ذلك الدعاء اللحوح الذي استمر ليلةً تامة ممتدة من دعاء؟ تشعر بضيقٍ في صدرها، ما دام الله يريد هكذا فلمَ الخشية؟ تقنع نفسها ثم سرعان ما تعود للوم والضيق، دخل غانم وفرج من ورائها وهي في وجومٍ، كان وجومًا ملؤه القلق والتفكير العميق.

- ترفة...

لم ترد عليه، كانت في عالم آخر. فلما كرر انتبهت: «أهلا حاج...».

ثم استغربت من عودة فرج معه، وتهلل وجهها فرحًا، حتى إن الرجل أشفق عليها وعلى ما وصلت إليه من حالٍ، طغت على الملامح، وأحس بأنها تحولت إلى طفلةٍ صغيرة تنشد لعبةً لا امرأة كبيرة، ثم سألت: «ألم تجدوا أهله؟».

جلس غانم على المقعد متعبًا: «قصدنا مع شيخ عادل مركز الشرطة فلم نجد مكانًا للوقوف، الدنيا مقلوبة قلب، تتدافع الناس كأنه يوم محشرٍ!».

- لمَ؟

- فلسطين، قال مظاهرات لأجل فلسطين.

قامت نحو الطباخ وفي أعماقها ينابيع فرح تتفجر وتروي: «يعني انتهت مصائب العراقيين ولم تبقَ سوى فلسطين؟».

- فلسطين قضية أمة.

فقالت وهي تسرح بعالم آخر: «أي».

- تهم كل عربي.

- بلى.

- بلاد العرب أوطاني.

تقول والسعادة تتجلى: «أي والله».

- من الشام إلى بغداد...

تسرح بعيدًا: «أي يا حاج..».

- ومن نجد إلى يمن... إلى مصر فتطوان.

ينتبه إلى ترفة وهي ساهمة عند الطباخ، قام حتى وصل إليها: «هل أنتِ بخير؟».

أحست بشرودها: «أي... هل من جديد؟».

- لا.. أنت لا أعلم ما بك... المهم، شيخ عادل قال نترك الولد عندنا إلى أن تتحسن الأوضاع ونرى ماذا سيحدث.

وعلى الرغم من أن غانم صار يسمع الإذاعة باستمرارٍ ويسأل الرائح والغادي في مطعمه من القادمين من الغربية عن صبيٍّ ضائع لكن لم يظهر من يعرف، حتى بعد أن فضت المظاهرات وقصد الملا عادل مركز الشرطة لم يعرفوا ضائعًا تم التبليغ عنده، وحتى عندما حكى لهم عن لصٍّ يدعى عبد الخالق لم يتذكروا، فقد مرت عشرة أيام ساخنة، تخللتها مظاهرات وشغب، ومعظم الضباط ذهبوا إلى بغداد للإسناد. عاد الملا عادل خائبًا إلى محل غانم نعيم، الذي ظهرت الحيرة على محياه.

«عشرة أيام ولم يسأل عليه أحد! والولد لا يعرف سكنه بالضبط، مرة يقول نبعد عشر ساعات، مرة الرطبة، مرة كبيسة، ويقول جده مات، أبوه ميت أيضًا، هناك خطأ في كلام الصبي، لعل وراءه مصيبة!».

ذعر الملا عادل من كلام غانم، أي مصيبة يخفي وراءه وهو صبي؟

- جريمة قتل، لعله ابن مجرم قتل وسُجن، هل ذلك بعيد اللهم اكفنا الشر؟ والصراحة يا ملا أنا بدأت أخاف على نفسي وزوجتي منه، الولد وراءه كومة أسرار، هل من المعقول أن نتركه بيننا؟

- صح، الحل عندي...

قاطعه غانم بلهفة: «أنا بين يديك».

- نأخذه إلى الشرطة تحير به، ما دخلنا نحن في صبيٍّ تائه؟ وهم يتكفلون به، لا أن يذهب واحدنا وحده يجر رجلًا ويقدم أخرى، والشرطة في ملل، بل نقول هاكم الصبي حيروا به!

- صح.

- لنأخذه اليوم.

- لا، اتركني أشاور الحاجة.

-27-

طفولة قلب

من نحن في حالة الحبِّ؟ كل واحد منا يحتاج إلى أن يكتشف نفسه مع كلِّ حالٍ جديد، يقلب أعماقه ويرى مدى التأثر، عند ذروة العشق وذروة الفقد، فكلاهما يخرج الإنسان منهما وهو على وجه آخر، وهذا ما صار عليه حال المختار، الرجل الذي طالما وصفته زوجه بالقسوة، بالبخل، بالتقاعس، ولد المختار مع هادية من جديد. لم تحتج هادية إلى جهد كبير حتى تقنع المختار بقصد الفلوجة، كان مستعدًّا لأن يقصد الغيب الغامض لا مدينةَ قريبة، فكر لحظتها في هذه الحياة وفي عجلتها القاسية، أما الآن فهي تبتسم، وعلى نحوٍ غريب. أما هادية التي تغرق في أحزانها رأت في أبي حبيب المختار شيئًا جديدًا، يدعو إلى الشفقة والسخرية والتسلية، فقد كان مثل طفلٍ، يعوم في دهشة البدايات، حتى إنها عندما رأته يركض أمامها ويخبرها عن تفاصيل الرحلة وعن السيارة التي اشتراها وكيف تعلم قيادتها وسيذهبان بها وحدهما –وشدد على الكلمة الأخيرة– للبحث عن فرج الله. ثم نقدها المقدم المعجل

حتى إنها ذعرت، لأول مرة ترى هذا المبلغ من المال، ألف دينار، فزوجها الأول عاش فقيرًا ومات معدمًا، وكان قاسيًا مثل صخور الوديان، جافًا مثل الصحاري التي تطوق بلدتهم، أما المختار فهو الضد المغبون، المنسي والمطرود، الذي ينظر إليها كالمسحور، صحيح أنها كلفته بما لا يطيق، حسب تعبير الملا عدنان، لكنه الشرعُ والعرف والعشق، فقد كان يريد أن يهجر أم حبيب التي «تدق في رأسه مثل مطرقة كبيرة» كما يقول، ويطلقها وإذا بهادية تعارض، ويريد أن يهجر الحياة الأولى ويندلح في حياته الجديدة وملذاتها وإذا بهادية تأتيه محملة بأوجاعها وأحزانها ووحيدها التائه، تحول إلى رجل طائش يفيض نزواتٍ وأهواءً، حاولت هادية من أول الأيَّام أن تروضه، تتحكم في إيقاعه، وهو لا يهمه إلا الفوز بها. لقاه الملا في اليوم التالي عقب صلاة الجمعة، سأله هامسًا، فتنهد المختار بحزن، ثم قال بقنوط: «العمر كله كنت أبات عند شرطي لا امرأة!».

حك الملا رأسه بعد أن خلع عمامته، فبان أنه لم يفهم، يضحك المختار: «يا ملا، تعال، أعطيك عيني وأجعلك ترى بهما هادية، يا أخي لم نكن نعرف نساءً!».

فقال الملا عدنان متلمظًا: «إذا تزوجت الثانية سأدخل السعادة مثلك؟».

يضحك المختار ثانية: «للسعادة أبواب، وللنساء طعم مختلف، والذكي من يختار جيدًا ويعرف دربه لا أن يبقى خائفًا من زوجته، أنت ملا، والشرع حلل أربعة، استعمل منح الشرع، العمر أقصر من أن يمضي مع امرأة واحدة يا ملا!».

يمضي المختار تاركًا الملا يلوك دهشته، ثم يضرب يدًا بيد محوقلًا.

***

في اليوم الثالث ينطلق المختار مع هادية إلى الفلوجة، يرتدي بدلةً لا دشداشة كعادته، يتعطر وكأنها ليلة دخلته، تسأله عن كشخته فيجيب أنه

ما زال عريسًا. تعبس هادية -تحسه أنه خرق حدادها- فيحزن: «حبيبتي، معارفي تجارٌ وأهل مال، وعندما نذهب إلى الشرطة ويرون الكشخة سيساعدوننا، يعني لزوم البحث».

تطمئن، فيشعر أنها تزهر في قلبه. في الطريق لم يقطع حديثه عن بطولاته وتجارته ومزارعه، وهي في الغالب لم تصدق، لأن حديثه لا يظهر عليه علامات الصدق، كأن قال لها: «عندما كنت في الحرس الملكي أخدم في قصر الرحاب دخل الوصي عبد الإله، في ساعة متأخرة من الليل، قال: ابني أنت من أي مدينة؟ وقفت أمامه مستعدًا، فتلوت له اسمي، وقلت له من الغربية، وتحديدًا كبيسة، فقال الوصي -رحمة الله عليه- بهذا اليوم أنتم أهل الغربية من أحسن الناس، شجعان، وكرماء، وأهل نخوة وفزعة، لا تصدقي حجم السعادة عندما يقول مثل هكذا كلام ويصدر من أمير هاشمي، اختلط في صدري الفخر والامتنان إلى هذه العائلة النبيلة، ثم دعاني إلى طاولته، أنتِ تعرفين أن الوصي -الله يرحمه- كان صاحب كأس، جلست وإذا بالخمر والمزة، قدم لي كأسًا فقلت معاذ الله، لا أشرب المنكر، ضحك بأعلى صوته، قال عفية، أنتم أهل الغربية أهل دين، ثم سألني عن اسمي قلت له سلام عبيد حميد، صار يسميني سلوم، حتى إنه مر مرة مع الباشا نور السعيد وصاح سلوم، كيف حالك؟ خجلتُ، تورَّد خداي، نظر الباشا نظرته المرعبة، خفتُ، فقال الوصي لا تخف، قلت بخير الحمد لله، ثم اتجه إلى الباشا قائلًا: سلوم أحسن زلمة هو وأعمامه، ثم مضى. الله يرحمه».

-28-

متى تكشف المدن عن دخائلها؟

ذُعر مدير المركز لأول وهلةٍ عندما رأى المختار بقيافته ونظرته الحادة ومن خلفه هادية، حسبه لجنة تفتيشية من اللجان التي تقفز أمامه بسبب المظاهرات، فلما صافحه مسلمًا وشرع بالحديث عرف أنها لهجة تاجر لا مسؤول ومفتش، تكلم المختار عن عبد الخالق هادي وكيف أنه اعتُقل وكان معه صبيٌّ، وأطال الحديث وهو يتخلله كذبٌ واضح.

فقال الضابط بعد ذلك: «حقيقة لم تمر عليَّ هكذا قضية!».

خافت هادية وتضاعف قنوطها في العثور على الصبي، فلما رأى المختار تمنعًا من المدير استأذنه باستعمال الهاتف، أخرج من جيبه ورقة ودق رقمًا ثمَّ بدأ يحكي: «السلام عليكم، شيخ علي الإسماعيلي؟».

ولما سمع الضابط الاسم تلبسته مفاجأة، وبقي في حالة انتباه إلى أن أغلق السماعة، ثم نظر إلى الضابط بمكر: «غدًا صباحًا سيشرب شيخ علي الشاي عندكم».

فقال بصعوبةٍ: «حياكم الله!».

خرج المختار ضاحكًا ومن خلفه هادية تجر القلق، فقبضت على يديه، توقف مبهوتًا، وتذكر أنها المرة الأولى التي تلمسه: «لم تركته؟».

- اصعدي الآن.

في السيارة أفهمها صعوبة بوح الضابط بأسرار، أو ببساطة الضابط لا يريد أن يتعب نفسه ويفتح باب قضية خاصة وملف المظاهرات التي تنشب بين الفينة والأخرى لم يغلق ملفها بعد.

فسألته بيأس: «وأين الوجهة الآن؟».

- ستأكلين أطيب كباب فيك يا فلوجة، ستنسين مصائب الدنيا، أتعرفين، بعض الناس يزورون المدينة فقط ليأكلوا هذا الكباب!

تساءلت هادية وهي التي لم ترَ سوى بلدتها وبلدة زوجها، عن كنه المدن وأسرارها، كل واحد منا يميل إلى المدينة لشيء في نفسه، ولده، أو معدته، أو دينه وعلمه كما الأب وعد الله، كل مدينة صورة عنَّا. مضت السيارة تخترق المدينة الصغيرة وتجرف معها ما في قلب هادية من قلقٍ وتوتر أصابها من كلام الضابط وخشونته التي اتسمت بالنفور، راحة عجيبة تملكتها، ألفةٌ تسللت إلى قلبها، حتى خُيل لها أنها خبرت الشوارع والأزقة والدرابين والبيوت والوجوه، الباعة المتجولين وهم يصيحون، رائحة الأطعمة العابقة من الكباب والدجاج والفلافل، وقفت السيارة أمام «كباب الفلوجة» الشهير، نزلت غارقة في السواد وبلا تفكير جلست على طاولة على الرصيف أدركها الفيء، وتبعها المختار الذي نادى على العامل سريعًا وطلب نفرين من الكباب، شعور مختلف أحاط بهادية، وهي تدرك في أعماقها أنه لا يعرف الخطأ، ويخيل إلى القارئ هذه الطاولة هي ذاتها التي جلس عليها فرج الله مع الملا عادل أول قدومه إلى الفلوجة، وترك فيها ما يكفي أمه من روائح. نزل الكباب، أكلت دون شهية، بقيت ترمق الوجوه الواجمة، السابحة في عرقها واللائذة بالكباب من دون أن ترى تعارضًا بين أكل الكباب الساخن والشمس اللاهبة. بقي المختار ينظر

إلى عينها التي لا تعرف استقرارًا، عينان خاويتان نهشهما الدمع والسهر، وشك طوال فترة الجلوس أن هادية تعرف أحدًا.

- هادية، عن ماذا تبحثين؟

رفعت كأس اللبن مرتشفة، ثم أنزلته: «ولم أتينا إلى هنا؟».

شعر بنفسه غبيًّا، ودائمًا سيصاحبه هذا الشعور معها: «أدري، وهل تتخيلين أن فرج سيكون في السوق؟».

- ولم لا؟

يجد نفسه مهزومًا أمامها، لذلك لا يطيل الجدال، قام إلى طاولة غانم عند باب الدكان، دفع الحساب ثم ركبا السيارة باتجاه بيت خلف عبد المطلب، صديق قديم جديد من أيام العسكرية، ويعمل بتجارة لا يعرفها سوى الرجلين، استعمل الرجلان عبد الخالق أداةً بينهما، وصلا إلى بيت في شارعٍ واسع، بيت تتجاوز مساحته ستمائة متر، خرج مرحبًا وارتسمت على محياه علامات الدهشة ثم السرور، دخلا وإذا بحديقة وحوش أكلت أكثر من نصف مساحة البيت، هذه المساحة التي سيضطر خلف بعد سنواتٍ إلى تحويلها إلى مسجدٍ، تهربًا من الضريبة القاسمة على التجار عند صدور قرار يعفي بناء المساجد من الضرائب، خلف عبد المطلب رجلٌ لا تعجزه السُبل والحيل، فوق الاحتمالات، أو «ابن جنٍ لا أنسٍ» كما يقول المختار. خرجت زوجه أم أنور مرحبة، دلفت إلى داخل البيت معها بينما المختار بقي في الديوان يرتشف القهوة المرة، لما قدمها خلف قال له: «الشيخ عبد العزيز السالم يكره القهوة، يقول إنها تحمل ثلاثًا من خصال جهنم: المرارة، والسواد، والحرارة».

خطر الاسم الذي شعر أنه يعرفه، ويعنيه، لكن لا يذكر، فلم يكن منه إلا أن تابعه: «إلى الآن تحب الحكم والشيوخ وهذه التفاصيل؟».

ضحك خلف: «وهل نملك سواهن يا رفيق؟».

يصمت المختار ويتابع شرب فناجين القهوة المُرَّة واحدًا تلو الآخر، يسأله: «لست على بعضك يا أبا حبيب، وراك شيء».

- أشياء والله، اتصلت بشيخ علي الإسماعيلي...

قاطعه مستغربًا: «علي الإسماعيلي مرة واحدة؟».

احتست الشاي من يد رقية ابنة خلف، ثم كلفتها أمها بالصعود إلى السطح كالعادة، تصعد رقية التي بلغت السادسة عشر بخفة طائر، ترش الماء حتى تبتل أرضه، تجف قليلًا فتختفي الحرارة ويظهر نسيمًا رائقًا، تفرش الحصير، وفوقه غطاءً آخر، تنادي أمها وقد ارتفع أذان المغرب، تصعد مع هادية والجو قد تحول إلى عليلٍ هادئ، تغمزُ أم أنور إلى رقية فتهبط إلى المطبخ لتجهز العشاء، تنظر هادية إلى الفلوجة من علوٍ، الحياة فيها تتراخى نحو هجوعٍ لذيذ، هي تعرف، حدَّ اليقين، أن فرج يربضُ في بيتٍ ما، هنا، في هذه المدينة، التي دخلت قلبها. متى تكشف المدن عن دخائلها، متى تملُّ وتلين وترينا تجاويفها؟ ترمق المساجد وهي ترتفع بالتلاوة، تذكر أبيها، الشيخ، وعد الله، تتمنى أن يكون ولدها تحت واحدةٍ من هذه القباب، خادمًا، دارسًا، كيف تلاشى الحلم؟ تحاصرها الدموع، توشك على الإجهاش فتشعر بيد أم أنور: «العشا جاهز».

-29-

نزق جديد

لم تكن غريبة ردة فعل ترفة بالنسبة إلى غانم، تمنعها الحازم متوقع، أثار في نفسه قلقًا وذعرًا، هل تظنُّ أن من حقها الاحتفاظ بالولد إلى الأبد؟ في النهاية له أهلٌ، وأمٌّ يذوب قلبها كل ساعةٍ على فراقه. حاول أن يفهمها أن وراء الولد قصَّة ما، وعلى أي حال لن تكون خيرًا، وإذا بها تنفجر مثل مرجانٍ، ترعد بشكل أخافه، ثم أصرت على بقاء الولد حتى يظهر أهله.

فقال بيأسٍ: «ولكننا نعرفُ مكان أهله!».

- وأين؟

- حسب وصفه إما في هيت وإما البغدادي وإما رواه..

قاطعته: «أو الرطبة أو عانة أو بلاد الله كلها!».

- الولد عنده مشكلات، هناك عصابة في الموضوع.

- اتقِ الله يا رجل، هذا طفل، إلى متى أنت وملا الشؤم هذا تخافان من خيالكما؟

بطريقةٍ ماكرة فرعت الموضوع، ورغم أن هذه الحيلة استعملتها عشرات المرات معه فإنها تنطلي عليه، فقال: «نحن لا نخاف، لكن الحذر واجب».

- الذي لا يخاف يخرج في المظاهرات، يدافع عن فلسطين، عن القضية، عن العروبة والدين، كما تقول.

ينفر من مجلسه كمن لُدغ: «لا أحد يقدر على اتهامي مثل هذا، أنا أول الداعمين للقضية، وفي ذلك اليوم لدي عمل».

- كل الناس لديها أعمال.
- ليس مثلي.
- وشيخ الجامع، لمَ لم يخرج؟
- أنا مسؤول عن نفسي، والولد يجب أن يخرج من هنا.

تقول بصوت عاتب: «لا تقدران على اليهود وتأتيان على طفل؟».

ثم ينتهي النقاش من دون نصر محسوم لأحد الطرفين، إلا أن غانم هذه المرة خاف، ليس من تحذيرات الملا عادل التي أطلقها فحسب وما يحيط الصبي من قضيةٍ غامضةٍ قد تحرجه في المستقبل القريب، لكنه يخاف من زوجه، من التعلق، الولد في النهاية ليس ولدهما، ولا مقطوعًا أو يتيمًا أو منسيًّا، فآثار النعمة تبدو واضحة، وهو لا يفتأ عن ذكر جده الذي مات، والسائق اللص. ينام غانم مهمومًا وهو يرى ترفة تتجه نحو قاع يعرفه، تنفلت منه نحو مساحاتٍ تتكسر عندها إرادتها وتفقد عقلها. يشرق في تفكيره بعيدًا، تنثال حياة ترفة التي عرفها وحفظها من ألسن الجارات في بلدتها قبل أن يقترن بها، فيهبط في هوةِ الاسترجاع المرير. واهمٌ من يظنُّ أن علاقة غانم تقتصر على لقاءٍ عابر في مطعمه الشعبي ثم تطورت بفعل مصادفاتٍ كونيةٍ تواشجت لتكون زوجته. صحيح أنه رآها أول مرة مع عمتها عاتكة

وطلبتا نفر كباب، لم يتلفت إليهما عندما علم من لفت العباءة أنهما من خارج الفلوجة، تَعِدَان طبيبًا أو تشتريان شيئًا من السوق ثم قادتهما سمعة المطعم أو رائحة الكباب العابق في السوق الكبير، فلما مرق مصادفة وهو يجول في مطعمه على العمال جيئة وذهابًا لمح وجهًا ممتلئًا وجذابًا، حتى إنه لا يرى من الجسد المتوشح بالسواد إلا قطعةً من ضياء، اضطرب، عاد لطاولته فكر بحيلةٍ يجتر لسانهما قبل أن تأتيا لدفع الحساب، فكر في وضعه سريعًا، ما زال أرملًا، صحيح أنه لم يمضِ على وفاة زوجه إلا شهر واحد، هذا لا يمنع ما دام في النهاية سيتزوج.

قامت عمتها عاتكة لتدفع الحساب، بلسانٍ ذلقٍ رحب بها وقبل أن يقبض الفلوس دس سؤاله: «كأنكما لستما من الديرة».

- أي والله، أتينا نراجع دكتور حسان وتأخر علينا.
- اليوم أنتما ضيفتانا إذن.
- لا يا حاج...

كسرت في قلبه هذه الكلمة، عدها سدًّا في طريقه الذي لما يبتدئ بعدُ، ثم تابعت: «بيتنا قريب في الصقلاوية... شمرة عصا».

ناولته الفلوس ومضت عاتكة ومن خلفها وجه سحريٌّ أرقه، تاركةً في قلبه نيرانًا تضرم، وأحزانًا تتفجر.

«الملعونة تقول لي حاج»، قال لنفسه، ومع ذلك لم يهدأ له بال، يعرف الدكتور حسان، طبيب الأذن والأنف والحنجرة، لا يترك المريض حتى يمتص جيبه، يبقى: اذهب وتعال مرة ثانية، تحسن قليل، وهكذا دواليك حتى يمل المريض ويذهب بلا عودة قانعًا في مرضه، في المرة التالية بعد أسبوع أتت عاتكة ومعها الوجه المدور مثل قمرٍ، يعلم أن كبابه مثل الدكتور حسان، من يزره مرةً يتبعه مرات، يدفع وهو يضحك، وهذا من أسراره، حتى عندما أتاه

تاجر الأغنام يحملُ نعجتين متعبتين وبهما علة لا يعرف سببها وطلب منه أن يأخذهما بنصف الثمن اعتذر منه وقال له: «المصلحة تخرب».

طلبت عاتكة نفر كباب لهما، فبعث لهما شيشًا مشويًّا من الشحم، فلما قالت عاتكة أنها لم تطلب شحمًا، أنبأها بأنها ضيافة من «الشيخ غانم»، ومفردة الشيخ طلب غانم من عامله أن يقولها ويمط لسانه بها لما لها من أثرٍ في النفس تختلف عن «حاج»، أو هكذا أحس. فلما لمس من عاتكة رضًى بالشحم الذي نزَّ من يدها وأدرك بفطنته حب المرأة للدرهم والدينار شرع في خطته التالية، ما إن أكملت قدح الشاي وقامت للحساب حتى شكرته، فباغتها: «عندكم سيارة؟».

فقالت عاتكة والتي ستتبين أنها ثرثارة فيما بعد ومن هذه الثرثرة نفد غانم: «لا والله».

قال باستغراب: «كيف تعودان إذن؟».

ضحكت: «ما بك يا شيخ؟ تاكسي، والصقلاوية ليست ببعيدة».

سرته كلمة شيخ، علم أن جذوره التي أنبتها حولهما في طريقها نحو الإيقاع، وبسرعة: «لذلك قلت، انظري إلى السيارة هذه أمام المطعم، هي لي، وسريعة، أعمل فيها تاكسي للحبايب».

ضحكت ببلاهة كما ظنَّ أول الأمر، ثم قالت وهي على استعداد للمساومة: «وكم تأخذ أجرة».

- لن نختلف، كم تدفعين العادة؟

- ثلاثة دنانير!

كاد يصرخ بوجهها لشدة كذبها، فهو يعلم أن الأجرة للصقلاوية لا تقل عن خمسة دنانير، لكن في النهاية هو لغاية، ليس تاجرًا أو سائقًا، فقال وهو ينظر إلى الوجه المستدير: «ديناران فقط، لستُ طماعًا».

- على بركة الله هيا.

صعد في سيارته بعد أن غمز إلى العامل، كانت الشمس توشك على الغروب، وصعدت المرأتان في الخلف، هدر محرك السيارة ومضت تشق طريقها بهدوء والرجل يدسُ أسئلته ويداري فضوله بلهجةٍ غير آبهةٍ، حتى إن عاتكة وهي الثرثارة قالت له: «شيخ، كأنك محقق».

ثم دوت ضحكتها في السيارة، خجل من نفسه، تصبب عرقًا، لم يكن بيت المرأتين التي علم أن الجميلة ابن أختها، يتيمة، في الصقلاوية نفسها، بل ملحقة بها في منطقة يقال لها «المفتول»، يقطع الشارع تلو الشارع، يودع بيوتًا وتستقبله بيوت أخرى. حتى إذا وصل نزلت المرأتان وأوشك على التحرك حتى ناولته عاتكة الدينارين: «هل نسيت أجرتك؟».

تناول الدينارين بيد مرتجفة، وعاد نادمًا من نزقه وطيشه.

-30-

العار

يشعر غانم بالمرارة والبطولة أيضًا عندما يتذكر كيف تحول إلى مراهقٍ في الخمسين، كيف احتمل أن يعدو وراءها بلا رادع، فبعد أن عاد إلى دكانه لائمًا نفسه التي انجرفت وراء نزوةٍ، يبلغ الخمسين، فكيف يتصابى إلى هذا الحد! في اليومِ التالي ملأه شعور الاشتياق، تململ بعد أن كان يقضي وقته هادئًا كسطح نهرٍ بلا ريح تحول إلى كتلةٍ ملتهبة، لم يكن منه إلا أن ركب سيارته وقصد منازل المرأتين! ماذا سماه لحظتها، تيه، ضياع، تصابٍ، اشتياق، عشق، هيام؟ والسؤال الأهم ماذا يريد من المرأتين وهو ينهم الطريق بسرعة مجنونة؟ صحيح أنه وحيد، ووحدته قاحلة كأن لم يعرفها إنسان، شهر على وفاة زوجته خولة التي أهلكها المرض، فكيف خلفته بعدها أعزل، على الرغم من أنها جفت علاقتهما قبل ذلك التاريخ بكثير، لكن هل الوحدة تحيل الإنسان مراهقًا، جافًّا، ينشد احتواءً؟ وصل إلى البيوتات التي أنزل عندها المرأتين، لم يحفظ البيت تمامًا، فقد تضرج بالخجل، وهذه البيوت عبارة عن فرع

طويل تتجمع فيه بيوتاتهم الطينية وفي ظهره مباشرة النهر، فمن يصعد أحد البيوتات يرَه مثل قلعةٍ، يطوقها النهر من جهتين، تتراصف البيوت، مما يشي بأنَّها قبيلة واحدةٌ تنكفئ على نفسها، بل خشي أن يسألوه عن سبب قدومه، رمق البيوتات الهاجعة في تلك الظهيرة، ثم نظر على مبعدةٍ من البيوت، فرأى دكانًا، قصده، طلب منه علبة سجائر ثم سأله عن اسم القبيلة وعن بيوتاتها، نظر إليه البائع بريبة، فلما ارتفع أذان العصر، ذهب إلى الصلاة، توضأ من غير تركيز، صلى من دون أن يعرف عدد الركعات التي صلاها، سلم الإمام، فرغ المسجد، ثم خرج ساهمًا، رأى عند المسجد دكانًا صغيرًا وضعت خارجه طاولات خشبية ليتحول الدكان إلى قهوة صغيرة، جلس إلى إحداها وطلب شايًا وماءً، جنبه مجموعة من كبار السجن يجلسون، وهو لا يبدو صغيرًا أمامهم، من ينظر في عينيه عميقًا يرى شيخوخة ترتسم بمهلٍ وتوشك على البروز، فمرض زوجه وموتها ترك أثارًا جعلت الزمن يقسو على وجهه، فلم يكن من أحد كبار السن الثلاثة إلا أن دعاه ليشاركهم شايهم، اقترب وشرع معهم في حديثٍ بعد أن عرفهم على نفسه، بأنه سائق ينتظر عائلة تزور أحد البيوتات المحاذية للنهر، أخذ يدسُ أسئلته بدهاءٍ، حتى هو يتعجب من الشيطان الذي يكمن فيه، يريد أن يظفر بها، يكذب، يراوغ، يتحايل، يطول المجلس إلى قرب المغرب، يسأل عن البيوت واحدًا تلو الآخر حتى وصل إلى عاتكة الجدة، التي تعيش بجوار أخوالها، وتنفع المنطقة بعلمها في الإنجاب، فهي قابلة ورثت مهنتها عن أمها شمسة المحمدي، ولم يحالفها الحظ بالزواج، رغم شكلها الذي يعدُ متوسطًا، بل يميل ميلًا هائلًا نحو الجمال، وإذا بنصيبها ينوس ويصمت وبغرابة أفزعت أمها، التي لجأت إلى ساحرٍ في بلادٍ بعيدةٍ، ومنذ ذلك الوقت أحجمت الناس عنها، قيل أن السحر قُلب، وجاء بنتائج عكسية، فلبثت عاتكة تنتظر حتى ملت، ثم قنعت بعملها، تساقط أهلها واحدًا تلو الآخر فناءً وبقيت هي مع ابنة أخيها. ترفة الصالح، التي يتغنى بجمالها الناس والكل يخشى الاقتراب منها، يستغرق غانم في السماء والنهر والبيوتات المتراصفة على بعد مد البصر. ولدت لأبٍ فُطر على حب

العرب وقضاياهم، سافر مبكرًا إلى أخواله في بغداد، توطنت العلاقة بهم، ومنهم من كان يقرأ كثيرًا ويتابع أخبار الوطن العربي، فلما عاد أبوها وهو فتيٌّ صار يبعث إليه ذلك الخال بين الفينة والأخرى مجلات عربية من مصر ولبنان، فتأثر بها وصار مهووسًا بها، يصدع رؤوس القاعدين بطه حسين والزيات، والرافعي، والاستقلال، والجمهورية. فلما كانت القضية الفلسطينية والانكسارات والنكبة ترك كل شيء واختفى، قيل إنه انضم إلى جيوش الإنقاذ العربية، ودخل فلسطين، وقاتل ببسالة وقُتِل هناك على حدود القدس، وقيل لم يصل أصلًا، بل من تمادى وقال إنه أحب واحدة قبل أن يلتحق بالجيش، وكانت كردية زائرة لبغداد، فلحقها إلى جبال السليمانية، واختفى في الكهوف والجبال الشاهقات من غير عودة، يومها كان عمر ترفة أربع سنوات، ولما سمعت أمها نبأ زوجها وهيامه بكردية هاجر معها إلى شقٍ وسط جبل قصي جُنت، ليس جنونًا مجازيًّا، إنما حقيقيٌّ، طار عقلها الهائم بذلك الرجل الذي غاب إلى الأبد، تنتظر بمرارة، عادت الجيوش العربية، انتهت الحرب وتجرع العرب علقم الهزيمة وأذاع المذياع تفاصيل الانكسار، فصدقت هروبه، فلم يكن منها إلا أنْ تهيم في الطرقات والصحاري المجاورة وتقصد النهر صباح كل يوم. لقد اعتادت القرى المنتشرة والبلدة المجاورة أن ترى مجنونًا تائهًا، أما امرأة! استنكروا، وعندما يرونها عارية الرأس يعظونها، يوبخون إخوتها، يأمرونهم بالستر، لأنَّ «المرأة مهما كانت فهي عورة»، فحبسوها، ربطوها بحبل في غرفتها، بقيت تقضم الحبل بأسنانها حتى انقطع، ثم خرجت بعد صراع مع الحبل، وما إن خرجت حتى لقيها رجل، ذُعر عندما رآها ممزقة الثياب وأحد أثدائها عارٍ، حاول منعها من الخروج وهي كوحشٍ محاصر، أتى آخر فعَلَا صوتها، ثم تجمع ثلاثة محاولين منعها، وفجأة وصل أخوها، فار دمه في عروقه، صاح من بعيدٍ، انفضوا من حولها. فرآها على ذلك الحال فلم يرَ نفسه إلا وقد التقط حجرًا كبيرًا من الأرض وقفز بما أوتي من جنون على رأسها بالحجر الثقيل، تفجر الدم وغابت ملامح الوجه لتستلم لصمت أبدي. ثم سلم نفسه إلى الأمن في الفلوجة، التي أطلقت صراحه بعد شهور

باعتبارها جريمة شرف. نفر الناس من ترفة التي أخذتها عاتكة من أخوالها بقوةٍ، وربتها، ثم واجهها الناس بإحجامٍ واستحضار لماضٍ قاسٍ. وربما لأن الناس اعتقدوا أن لطخة من الشؤم وشمت البيت، العمة وابنة أخيها، فخافوا منه.

-31-

وهل أهل الله يسرقون الموتى والأطفال؟

قام الضابط مرحبًا، الشيخ علي، ذو كلمة مسموعة وعلاقاتٍ ممتدة، طولٌ فارع، وجهٌ مملوء بالتجاعيد من غير قدرةٍ على إخفاء الصرامة في تينك العينين، ما إن جلس إلى مكتب الضابط وأمامه المختار حتى شرع يسرد من دون اهتمامه سعيه للاتصال بوزير الداخلية ليهتم بالأمر شخصيًّا، وكيف أن أبا حبيب تداركه وطلب منه أن يترك الأمر للضابط هو من يتدبر الأمر بحثًا وتنقيبًا. لم يطل الأمر بالضابط، نادى الشرطي، أخرجوا سجلاتهم ليعرف الموقوفين بتهمة السرقة قبل أسبوعين تقريبًا، من دون عناء برز اسم «عبد الخالق هادي رميض»، فقال الضابط: «المتهم صعد المحكمة الآن، ومن صعب التلاعب بأوراق القضية».

فقال شيخ علي بحزم: «أي تلاعب؟ فقط نراه، يدلنا على أثر!».

بعد دقائق كان عبد الخالق أمامهم وعلى حالٍ يرثى لها، ما إن يتهالك على مقعدٍ جنب الشيخ علي حتى يزعق به الضابط آمرًا بالقيام، ينهضُ من المقعد كأنه ينتشل جسمه من تحت البحر، كأن جوعًا ينهشه؟ تهاجمه رائحة الشاي الموضوع أمام شيخ علي. ينظر إليه بحسرة فيرفع شيخ علي الكأس نحوه: «اشرب».

ينظر عبد الخالق إلى الضابط الذي يومئ له بسماع تعاليم الشيخ، يأخذ الشاي ويكرعه، أمره الضابط بالحكي، فبدأ يقص عليهم خروجهم فجرًا، وكيف أن الشاحنة تعطلت بهم، وفي هذه الأثناء تعب الشيخ وعد الله، فلما توقفوا رأوه قد أشرف على الموت، أنزله بصعوبة، فلم يطل به المقام حتى مات، ووقفا على الطريق إلى أن أتت حافلة، تعاونوا على الحفر في الأرض الصخرية ودفن الجثمان، ثم اعترف كيف أخذ أمام الأعين المائة الدينار، وظن أن فرج لم يره، بينما الذين حفروا حسبوا أنه قريبٌ له، في الطريق وأمام الأنظار دعاه فرج، وهكذا دواليك حتى كتفوه وجلبوه إلى المركز.

ثم بعد ذلك ماذا؟ صمتٌ، لا يعرف أكثر من ذلك، أين اختفى الصبي؟

فقال عبد الخالق: «الكهل وامرأته».

قال الضابط بسرعة: «أي كهل؟».

- الذي جلبني إلى هنا، وزوجته، التي أعطتنا عباءتها لنلف بها جسد الشيخ وعد رحمه الله، أجبته حبًّا عظيمًا، وبقيت تلومني وتضربني بين الفترة والأخرى.

- زوجها الذي سلمك إلينا؟

- أي، وهو من سكان المدينة.

وجد عنوانه فعلًا في المحضر المثبت في ذلك اليوم، بعث الشرطة لجلب الكهل وزوجه شقت السيارة طريقها، نصف ساعة وكانا أمام الضابط سأل المرأة: «كيف اختفى فرج؟».

- أدخل زوجي هذا اللص، وأنا بقيت عند الباب، ذهبت على ما أذكر لشراء شرابًا باردًا ثم غاب، الولد يا عيني كان مصدومًا بوفاة جده، ثم هذا اللعين سرق المال.
- وأين كان يريد الذهاب؟
- إلى الشيوخ.
- أي شيوخ؟
- علماء الدين، جده الله يرحمه ويرطب تربته يريد أخذه لتعلم القرآن الكريم والعلم في الفلوجة، حتى إنه معه المائة دينار لشراء حاجيات الأساسية لمعيشته.
- أين تعتقدين أنه ذهب؟
- لا أعلم!
- كيف لا تعلمين؟
- وكيف لي أن أعلم؟
- ألم يحكِ لك شيئًا؟
- حكى الذي قلته، تجده عند شيخ ما!

انتهى الحوارُ عند هذا الحد، أحسوا في الغرفة بضياعٍ، حلقة مقطوعة، وكل الدلائل التي هموا بجمعها لا توصل إلى دليل مقنع، لم يكن أمامهم إلا أن يبحثوا في الأماكن التي يلوذ بها الغرباء من طلبة العلم.

خرج علي الإسماعيلي وخلف بينما بقي المختار الذي طلب عبد الخالق الخلو به، خرج بعد ربع ساعةٍ تقريبًا ووجهه متغير، صعد السيارة وجنبه علي وفي الخلف خلف عبد المطلب، وقبل أن ينبس بكلمة كانت السيارة تشق طريقها نحو محل الكباب، استغرب علي من وجهته.

أجاب: «الكباب يعدل الرأس!».

نزلوا من السيارة وطلب المختار ثلاثة نفر كباب، فسأله علي عن المتهم وماذا يريد؟ أجاب بمكره المعتاد: «بكى وتوسل وقال إنه الوحيد لأمه وأبوه درويش من أهل الله...».

قاطعه خلف: «وهل أهل الله يسرقون الموتى والأطفال؟».

- أخطأ الرجل، وفي الديرة هناك زوجته قطعت قلبي توسلًا وبكاءً.
- وماذا ستفعل؟
- عندما نجد الطفل إن شاء الله نحاول أن نرى ترتيبًا يخرجه بعد أن يتوب إلى الله توبةً نصوحة صادقة، وبمعية الشيخ علي.
- اعذرني يا أبا حبيب، اللصوص ليسوا طريقي.

فقال المختار محاولًا بدء مراوغاته المعروفة: «لكنه فقير ومعدم».

فقال الشيخ بحزمٍ: «لا ألوث سمعتي».

ليرد عليه بما يشبه التوسل: «الله يحب العافين عن الناس!».

قطع كلامهما غانم عندما أتى مسرعًا إلى الشيخ علي معانقًا ومعاتبًا، يسأله عن أحواله وأخباره، ولكنه لم يطل في الوقوف، أقسم عليهم أن لا يدفعوا دينارًا، وأن وليمة اليوم على حسابه.

-32-

رأفت اللّٰه بترفة

كلما جلستُ للكتابة فكرت في النص الذي يتفرع ويتسرب حتى ليغدو عصيًّا على التجمع، حكايات تتصدع وتكبر، والذاكرة تستدعي وتستذكر، وأعود لأسأل نفسي السؤال المعتاد: لماذا أكتب عن جدي وأنا الذي يتخيل حكاياته عبارة عن فُتاتٍ متناثر في الصحاري والوديان والمدن وباحات المساجد؟ ما الذي يعني القارئ هو يبحر في رحلةٍ قاسيةٍ يشق الصحاري نحو مدينة أحبها بعد أن دخلها محزونًا، أخفق في التعلم وتعلق بها على نحو مجنون؟ ثم العجب أن فرج تماهت معه ترفة وأخذته عند شيخ يدرِّسه، أليس عبثًا أن يقطع الطرق ويوشك على الفناء ثم يجلس في حضرته أبله! يجلس الليل الطويل يتلو الآيات العشر التي أمره بحفظها، ثم يقف أمامه، يقول له: «اقرأ».

يصمت، يستدعي الذاكرة فلا يحضره إلا فراغ وصوت أمه وهي تتوسل بجده: «لا تأخذه، أنا لا أملك سواه».

أصابته لعنة، يريد أن يقول له «ما أنا بقارئ» لا يذكر أين سمع الجملة لكن أكيد من شيخ من الشيوخ الكثر الذين استمع إليهم في كبيسة مع جده.

يتشجع، ثم يقول: «ما أنا بقارئ».

فيجيبه: «وهل تظنُّ نفسك نبيًا؟!».

يسكت، فيزعق به: «تستهزئ بالأنبياء؟».

يجيب: «وربي المعبود ما أستهزئ.. والقرآن...».

- القرآن يكسر ظهرك يا ابن...

- أبوي ميت!

- بس ما رباك...

ما الذي يجرفني نحو كتابة حوارٍ أبله، مع شيخ قاسٍ آتٍ من عصورٍ سحيقةٍ، جعل فرج يكره العلم ويتمنى لو أنه مات وكان نسيًا منسيًّا قبل أن يقصد جده جامع الفاروق ويتوسل ويذرف الدموع ويقدم النذر الذي أجهز على حياتهما معًا؟ تتداعى الحكايات في الرأس ما دام كلها تتصلُ ببعضها. يتعب فرج من الشيخ الذي كرهه بالعلم، فقد تعمد أن يطلب منه آياتٍ صعابًا، يشعرُ بمشقةٍ، كمن يمشي حافيًا في وادٍ مليء بالأشواك، يحس بأنه يصارع قوةً خفيةً، متونٌ وحواشٍ وقراءات، وهو أبله، حتى عاد إلى ترفة متذمرًا، تسأله عمَّا يريد؟ فيجيب بلا تردد: «أمي»، تحضنه وهو يردد كلمته وتعده أن يعود إلى أمه.

تمضي الأيَّام ويتضاعف حبُّ ترفة لفرج، فتوقن أن الدعوات التي أطلقتها حول الكعبة تلك الليلة استُجيبت بطريقةٍ أخرى، هي راضية تمام الرضا، الطفل هذا تعويض. تتأمل شكله، الميل نحو البياض، ولون بشرته يشبهها تمامًا، وهذه من مناسبات القدر ورأفة الباري بها، الأنف يمتدُ حتى يكون طويلًا بلا نشازٍ أو عيب ظاهر، وهو لا يشبه أنفها الصغير، أما ذقنه فيبدو دائريًّا، أشبه ما يكون بها، فإذا استثنينا الأنف الذي تراه يختلف عن أنفها

ففرج منها. رددت اسمه كما تفعل منذ عثرت عليه، ملأ قلبها، حققت رغبة جده عندما أخذته إلى الملا فياض وغرفته الملحقة بمسجد «الصابرون» وطلبت منه أن يعلمه مبادئ العلوم الشرعية. أغدقت عليه بالملابس والاحتياجات التي تراها ضرورةً، تتمطى الأيام فيزيد حبُّها، ويقل من ذكر أمه وجده.

-33-

قلب متصحر

قامت مذعورة وقلبها يفر من زلعومها، حلمٌ مزعج أرقها، ما أيقظها من النوم هو طرق خفيف ومستمر، قامت عاتكة وقد علت الشمسُ، فتحت الباب فدخل أخوها صالح وهو يقول: «كُسرت يدي وأنا أدق، إلى الآن نوم؟».

- وماذا ورائي؟ لم أنم حتى مطلع الفجر...
- عساه خيرًا؟
- صفية زوجة هيثم الشرطي ولدت، وذهبت لأنجبها.
- سمعت أن صفية طلقت بعد العشاء، كنت خارجًا ورأيته ببدلته العسكرية يركض ويبحث عنك.

حملت قربة الماء وسكبت في القدح الفخاري وناولت: «أي، لكنها وضعت بنتًا!».

- كم أصبحن؟

- السابعة، لو أتيت يا أبا مهدي وترى ما فعلَ بنفسه وكيف جن جنونه، لقد انقلب البيت إلى عزاء، كأنه مات ميت، يكسرُ بأغراض البيت، ويزعق مثل حيوان...

قاطعها: «وهو حيوان فعلًا، الذي يعترض على رزق الله ماذا يكون إلا حيوانًا؟».

- المهم خفت على صفية وبقيت معها، وأتلو آيات القرآن وأقنع زوجها المجنون، إلى صلاة الفجر حتى توضأ واستغفر لذنبه، صليت عندهم وتركتهم.

ثم نظر إلى الفراش الموضوع جنبه وإذا بترفة تغرق في نوم عميق، تحرج أول الأمر وهو ينقل النظرات بين المرأتين.

- قل يا أخي لا تستحِ.
- عريس يريد الزواج من ترفة.
- من؟ أكيد ليس من الديرة.
- صحيح... رجل يقال له غانم نعبم، صاحب كباب الفلوجة الشهير، تعرفينه؟

لم يبذل غانم جهدًا في الاقتران بها، كان مدفوعًا بإحساس غريب بأنها ستوافق رغم الفارق العمري الذي يبدو هائلًا، عتبة الخمسين وهي خطت العشرين بقليل، وهذا ما حصل، موافقة سريعة مشفوعة بوصايا عاتكة القابلة، وغانم استقبلها بقلبٍ متفتح، آتٍ من سنوات القسوة والألم، اللذان سببهما له موت زوجه الأولى ومرضها من قبل، فأخذها إلى الحج وهو يرمقها كأنها غيمة سقطت في حجره، لم يصدق أنها بين يديه، في العام الأول أنفق على ترفة كما لم ينفق رجل على امرأة، بذخ، فلما مضى شهران من دون حملٍ قصد بيت الله الحرام معها، بقي يرمقها وهي تطوف متوسلة، كانت تبحث عمن يملأ حياتها، تعب بعد الطواف سبعًا حول الكعبة، فقعد ينظر إليها وهي

تطوف بلا تعب، تبكي وتطوف، إحساس عميق بأنَّ الإنجاب سيتأخر، كان قلبها في تلك اللحظات يشبه ريحًا مصفرةً؛ لا تحمل سوى القنوط والجفاف، قلب متصحرٌ ظمئ. تمادت السنوات مثل سنوات المَحل، وكلما مشت حرثت وجه غانم ونهبت من صحته وعمره، يفور شباب ترفة أمام شيخوخة غانم، ويكبر معها الحزن والظمأ، تقرر أن تمنح الأطفال المحتاجين من مالهما، كما نصحها عارف عابر قصدته، فلا تزدها إلا ظلمةً وحسرات وطلبات ملا عادل الذي يبخل على الفقراء ويطمع في إنفاقها. عاتكة عجزت، الأطباء يقولون لها صحتك غزال، بينما عادت عاتكة همست: «البنت حُسدت، عين قوية لم تصلِ على النبي».

وغانم يركض ذات اليمين وذات الشمال، يتناوبان على الأطباء حتى جاء فرج، تبدلت طباعها، سكنت، عاشت دور الأم متخلية عن دورها في قصد الأطباء.

-34-

للكلمة ثمن

«العزيزة هادية...

بحزن بالغ تلقيتُ نبأ وفاة أبينا المغفور له بإذن الله، ويبدو أنك لا تعرفين حجم الأسى الذي نعيشه، الحال ليس كما تتخيلين، ورغد العيش الموعود في بيروت تبدل، فعلى الرغم من ترقيتي إلى منصبٍ هامٍ فإن المضايقات ما تزال تتوافد من كل مكانٍ، مما دفعني إلى الاستقالة والنأي بعيدًا في بلاد غريبة علينا، مما يحيل عيشنا إلى صعوبة بالغةٍ.

يا حبيبة الروح، أعلم أن المواساة لا تنفع شيئًا، لكن سفرنا إلى بيروت بحجة دراسة غصون نوع من الفرار، سأحاول القدوم في بداية الشهر القادم، والبحث عن «فرج الله»، لا أعلم ما الذي أصاب آل وعد الله حتى توالت المصائب علينا، مع الرسالة سأبعث إليك مائة دولارٍ، تحتاجين إليها لزوم البحث عن الولد.

أنتظر بداية الشهر القادم وسأحاول أن أكون عندكم.

الدكتور محمد وعد الله الكبيسي

بيروت 1972/8/17م».

بكت هادية بعد قراءة الرسالة التي أتى بها أبو حبيب، وكادت تمزقها، وأعدته من قلة الوفاء، رجل تنكر لهم، بين ليلة وضحاها، ترقى وسافر، ولم يجُدْ عليهم إلا برسالةٍ شحيحة، أم أنور لفتت انتباهها إلى الظروف التي تحيط به، لم تفهم هادية ما تتفوه به، الذي تعرفه أن أخاها نسيهم بعد أن تزوج تلك الممرضة. والحق ليست أم أنور وحدها من تنبهت، الرجال الثلاثة الذين يقضون وقتهم بين مركز الشرطة وكباب الفلوجة ومؤخرًا في المدارس الدينية وحلقات الشيوخ بعد الصلوات توقعوا أن يكون وراء غياب الدكتور محمد سر دفين، فقال لهم الشيخ علي لا أحد يعرف السر سوى أبي حبيب، أنت من ينبغي أن يعرف، حك رأسه على عادته أوقات الحيرة، كان رأسه فارغًا، أنى له معرفة ما يفكر به محمد وهو الذي قضى عمره في الخارج، يعشق الغربة وينفر منهم، ثم تنبه: «الكتابة، هذا الولد الذي أعرفه عنه يكتب في المجلات والجرائد ويسبب مشكلات دائمًا، أصلًا ترك سامراء لأنه كتب عن معتقداتهم بالأولياء، مما جعل أهل المدينة ينفرون منه، وهكذا، أي مكان يجلس فيه تراه يكتب ما يثير حفيظتهم!».

فقال خلف: «وما الذي يدفعه إلى الفرار من البلاد كلها؟».

- الله أعلم!

فقال الشيخ علي: «الله أعلم كيف؟ البلاد لم تعد تتحمل من يخرق أفكار المجتمع، والذي فهمته في زيارة بغداد الأخيرة لن يعود بإمكان أي أحد أن يحكي على مزاجه، كل شيء سيصبح بحساب».

فقال خلف بذهول: «اللهم اكفنا».

- أي نعم، حتى التجارة، الرقابة ستختلف عليها، ليس كما كنا، كل واحد يشتغل على مزاجه، تسعيرات، وتفاصيل، وضرائب، وكمارك متشددة.

فقال المختار: «يعني في اللحظة التي يتنفس فيها المواطن ويريد العيش يأتون فيصعبون المعيشة».

فهمس شيخ علي وهو ينزل لقمة الشحم المشوي من فيه: «حتى الكلام يا أخي، اذهب واسأل عن شقيق زوجتك ماذا قال، ماذا كتب، ما أفكاره».

فقال المختار بذعر: «كيف يعني؟».

- يعني شيوعي مثلًا؟ قومي؟ يحب فلسطين؟

فتجلت قوة المختار الكاذبة واستحال خوفًا: «وما دخلني؟».

- كيف ما دخلك؟ هذه الأشياء التي لا نعرف منها سوى الاسم متعارضة فيما بينها، وقد تحب واحدًا فيقبض عليك لأجل الأخرى...وتبقى أنت المسؤول عن عائلة الدكتور هذا!

- يا ويلنا.

يرفع الشيخ علي قدح اللبن المثلج ويشرب ببطء كأنه يناجيه بينما المختار ينتظر على أحر من الجمر.

- ولى الزمن الذي يحرث كل واحد منا في أرض، زمن الأرض لمن يزرعها، الحياة الآن غير، كما ترون عجلة الأعمار تسير، والتعليم عال العال، أهذا بالمجان؟ ما تأخذه باليمين تعطيه بالشمال!

وهم في حديثهم يظهر غانم مرحبًا ومهلهلًا، ثم ينزوي بعد ذلك في مكانه، لقد سمع أشياء كثيرة منهم، وعن الضيف الذي معهم، يبحثون عن شيء، أمر العامل أن يستمع ما يتجادلون به، إحساسٌ عارم أنبأه بعلاقة الثلاثة بفرج!

-35-

غرباء يطرقون الباب

يتعجب فرج عندما يكبر ويوشك على توديع الكهولة واستقبال الشيخوخة، كيف نفر من الدروس على ما فعله جده وعد من تهيئةٍ روحية ونفسية لهذه الحياة؟ كان في كبيسة يحفظ، يعي، في الفلوجة أصابه عيٌّ، وبلاهة غريبة، وألم في الأعماق. في ذلك العمر المبكر عندما أوشك الشهر الأول على الانتهاء وهو في بيتِ غانم نعيم بدأ ذكر جده يخفت فيه، وصار يسمعُ كلام ترفة، ولم يتخيل للحظة على توقد ذهنه واشتياقه إلى أمه أن المرأة هذه تسحبه نحو مسافتها، تريده لها وحدها، وهو، كيف استجاب وخطا نحو تعلقٍ بهذه المرأة، شيء فيها يشبه هادية، من رائحتها، لوعتها عليه، لهفتها وهو يدفع الباب حاملًا كراساته وناقمًا على الشيخ، على الرغم من أن ترفة اتخذت من حيلةِ «النذر» خطًّا للظفر بأمومة متخيلةٍ، وإذا ذكر أمه تنشط في وعده بأن توصله إلى باب بيته، وتقول لهم: هاكم وديعتكم.

في ذلك المساء كان عزاء عليها، أبلغها بجماعةٍ غرباءٍ مع الشيخ علي كأنهم من الغربية يبحثون عن ضائع ما، استنفرت وهي تهم بالهجوع، قامت من رقدتها، انثالت أسئلتها عليه؛ من هم، من يفقدون، ما لونهم، معهم امرأة، أفندية أم لباس عربي، أحدهم شكله دكتور؟ لما أخبرها بصفاتهم عادت تفكر بصفات خال فرج، طبيب، متأنق، يميل إلى الطول، يرتدي نظارة دائرية، عمره تجاوز الثلاثين بقليل، لهجته التي تميل إلى لهجة أهل كبيسة، فأصر غانم على أن لهجة أحدهم كبيسة خالصة! صُعقت، إن لم يكن خاله فمن هو، وكيف توصل إلى شيخ علي، ثم لمَ يقصدون المطعم، صار يقول لها إنه لم يسمع جيدًا، لا يعرف ماذا يقولون، فقالت له: «إياك أن تتفوه بشيء، حتى إن سألوا، لا تقل لهم!».

- كيف لا أقول إن كانوا أهله؟
- كيف يعني أهله؟
- أهله يعني أهله، ما بك؟
- هو عنده خال، أي خال اسمه محمد، محمد وعد الله، وأم، أمه اسمها هادية، عداهما كذابين، لصوص ربما، قتلة...
- ما بك؟ اهدئي...

صار يمسك كتفيها بذراعيه ويمسد عليهما، فقد أصابتها نوبة قلقٍ، ربما جنون، المهم حالة غريبة يعرفها، يبلغ بها الخوف مداه، تتوتر فيبقى يهمس لها أن كل شيء على ما يرام حتى تعود لوسادتها، يطفئ الأنوار ويبقى يتلو المعوذتين ويبشرها أن لا أحد ينال من فرج. في الصباح قامت متأخرة، لم يذهب إلى مطعمه، ألم في رأسها، ولما أحست على نفسها قامت مسرعة نحو الغرفة التي يقبع بها فرج، لم تجده، عادت نوبة البكاء والرغبة في الصراخ، وصلت المطبخ فوجدته جالسًا يقلب بمصحفه، اطمأنت، سألته: «أكلت؟».

- أي، أطعمني عمو غانم.

تنفست بصعوبة، فهمَّ بأخذه إلى حلقة الملا، فرفضت: «اليوم يبقى معي».

يخرج من البيت، يركب السيارة بفتور ويذهب إلى المطعم وهو يفكر بالحقيقة التي تطرق الباب.

-36-

مهمة الأنبياء

في قاعٍ ما من العمر هناك معركة، نهزم بقسوةٍ هائلة لا تحتملها مكانتنا ومناصبنا، ولكننا نخوضها من جديد غير نادمين. هكذا فكر الدكتور محمد وهو يرى كتاب الإقالة من منصبه كمعاون لمدير المستشفى الكبير وبتوقيع رفيق عمره «الدكتور حمد العاني»! جاء الكتاب بلا مقدمات، كم تمنى لو وقع هذا الكتاب شخص لا تربطه به صلة، مثل فراس من قبل، لتصور الأمر ليس هزيمةً، لكن أن يأتي صباحًا إلى مكتبه فيجد كتاب الإقالة وبهذه الطريقة التي أقل ما يقال عنها إنها مهينة، لا يمكن السكوت عنها، نادى السكرتير، سأله عمن أتى بالكتاب، فأجاب: «سكرتير المدير»!

شعر بنفسه غبيًّا، ومن يأتي بهكذا كتاب؟ خرج مسرعًا إلى غرفة المدير، لم يجده، اعتقد أن صديقه هرب، وسيأتيه مخذولًا، معتذرًا، بعد كل الذي فعل؟ مشى في الممر ساهمًا وبغتة كان الدكتور حمد أمامه يهم بالدخول إلى مكتبه، مشى معه وهو يستحثه للحديث والدكتور حمد يتمتم: «*ليس الآن*...

اذهب وبالليل تعال»، وإذا به يصرُ إصرارًا غريبًا حتى إذا همَّ حمد بفتح الباب مسكه من يده وقال بغضبٍ: «لا يحق لك أن تتجاهلني إلى هذا الحد.. احكِ شيئًا!».

حاول حمد تدارُك الموضوع، السكرتير في ذهولٍ، جلبة الصوت جعلت الأعين العابرة في الممرات تترصدهما، فقال بصوت مسموع: «دكتور، أنت موظف، التعليمات واضحة، ارجع إلى وظيفتك كطبيب عادي من دون أي منصب إداري، وإلا اتخذتُ العقوبات الحازمة بحقك وبأقصى ما عندي من صلاحيات!».

يحس بدوار خفيف، هبوط في هوة، هوة حقيقية لا شيء يملؤها، عاد إلى المكتبِ تائهًا، أتى نحوه بعض الموظفين يتداركون حاله، وأحدهم أتى بعصير الليمون، انتظر إلى أن استوعب، حمل حقيبته وخرج يطوف شوارع بغداد، لا شيء يدهشه في هذه البقعة من العالم، كل الألوان، الأماكن يراها باهتة من غير طعم، يتذكر عندما بعث له قبل شهور يريده أن يكون عونًا، ينعم بالخيرات التي نالها، ألم يكن في نعمةٍ غالية وهو يعمل في مستوصفٍ منسيٍّ ومعزول عن العالم، ما الذي جعله يستجيب، حتى طُرد من غير احترام؟ يدور في الشوارع، حتى إذا تعب ولم ينتبه إلى الشمس التي التهبت وتكاد تحرق كل شيء استأجر تاكسي وعاد إلى بيته الذي استأجره في الأعظمية محلة السفينة، وصل، أشرعت غصون الباب وكانت على قلق، فقد علمت من خلال اتصالها بالمستشفى أنه خرج حزينًا بعد صدور كتاب الإقالة.

استقبلته بقولها: «عادي حبيبي، كل الناس، تستلم مناصب وتخرج!».

نظر إليها بلا مبالاة، ومضى نحو غرفته.

***

عند السادسة طُرق الباب، غصون تتابع محمد الذي نام منذ أن أتى، تراقب أنفاسه خوفًا عليه، فلما تكرر الطرق خرجت إلى الباب، كانت الفجأة؛ الدكتور حمد، بقيت صامتة.

- ألا ندخل؟

انتبهت إلى صمتها المشحون بالقلق: «عفوًا، تفضل دكتور».

دخل إلى الصالون وهي بدورها ذهبت لتخبر محمد. جلسا متقابلين، محمد في داخله شخصٌ متذمر يريد أن يرغي ويطنب ويصرخ وربما يضرب، وآخر يريد منه أن يصمت ويدفن غضبه من الأعماق.

وعلى هذا الحال حتى قال الدكتور حمد وهو يتناول الشاي من يد غصون: «أعرف أنك زعلان، وربما زعلك ثقيل، وقلت الصديق الذي كنتُ أظنُّه صدوقًا نأى عن الصداقة وغرته المناصب ومجالسة الكبراء والوزراء، كل هذا وهم، لستُ من يتنكر لعشرته وخلانه، وتعجبت أنت من تنكري لك بإرسال كتابِ الإقالة، حقك، وأردتُ أن تفعل ذلك، لمَ، تقول في نفسك، لأنك ببساطة لم تعترف بنا كلنا، أنا، ومن قبلي غصون، وأهلك في كبيسة... أنت تتنكر الآن، تظنُّ أنك على حق، أنت أنانيٌّ، عندما تقرر أن تكتب وتنشر من دون أن يهمك أحد هذا مصيرك، عندما تجمع مجموعة مقالاتك في كتاب وتبعثها سرًّا إلى بيروت لتنشرها من دون أن تقول لنا تبقى أول من تنكر، لا تستغرب، أُعلمنا بذلك، مقالاتك التي بدأت تنشرها منذ كنت في سامراء، وطردت من المستشفى، هي نفسها الآن تسبب لك هذا القلق، ما الذي يدفعك لهذه الخسارات؟ قل...

- الفكر، الحرية، الكتابة في النهاية كشفٌ، تدمير الرواسب الجاهلية من العقل الجمعي!

- ليس مهمتك أن تحرر العقل، أنت طبيب، تنعم بما تدره عليك هذه المهنة من خيرٍ وفيرٍ، ما دخلك بوجع الرأس؟

- وجع الرأس هذا هو الذي يفرق بين الإنسان والبهيمة يا دكتور.. عندما تعيش بعقلٍ يقدسُ مفاهيم القبيلة، الأسطورة، السحر، المراقد، ويظنها الخلاص، هذه حيونة!

قالت غصون لما رأت حدة كلامه: «محمد...».

قاطعها حمد متمهلًا: «عادي عادي، أخي ومتعود عليه، طيب سؤال، هذا الكون كله لم يبقَ من يحرر العقل سواك؟ أنت تحمل مهمة الأنبياء يعني؟».

- لا... لكن إذا سكتنا أنا وأنت، من يحمي العقول؟
- وما شأننا؟
- شأني أني إنسان، أفكر وأريد أن أقنع الآخرين بجهل ما يدركون.

ضحك حمد، ثم تناول كأس الماء: «ألم يقل سارتر «الجحيم هم الآخرون»؟ سر على مبدأ سارتر، أنت تقع في الجحيم! وهذه الجحيم لست وحدك بها، كلنا مركب واحد، وفعلت ما فعلته اليوم لأجل تسطيح العلاقة بيننا، ومن ثم المساعدة، الأعين كثير يا صاحبي...».

- يعني أنت خشيت مني؟ تخاف على سمعتك!
- من قال سمعتي؟ أنت لا تعرف...
- أعرف كل شيء... أنت ببساطة ضحيت بي لأجل منصبك.
- لا تكن مهبولًا... لو تعرف ما أعرف لعذرتني.
- وما الذي لا أعرفه؟
- كثير.
- نورني.
- أنت ببساطة، تسفه معتقدات جماعات كاملة، بلد كامل، الناس عامة غير مستعدة للتضحية لما فُطرت عليه.

قام حمد وهو يرى صاحبه على حالٍ من الغضب والمرارة وخرج مودعًا وخلفه غصون تكيل كلمات الترحاب: «حياك الله دكتور واعذرنا من التقصير..».

عند الباب همس: «معصب، كم يوم وأعود».

-37-

سحر الغجرية

خياران أمام محمد لقضاء الإجازة التي منحها دكتور حمد له، الأول هو زيارةُ بيت أبيه والتمتع بأجواء البلدة، والثاني تحرير كتاب ثانٍ اجتمعت مادته عن «الصيف ونزعة الشر في الإنسان»، وهو مجموعة من المقالات المتفرقة التي كتبها أيام الصيف اللاهب والتي يرى من المناسب تحريره في هذه الإجازة. والكتاب في مجمله تعبير عن كراهية الصيف والحرارة اللاهبة. سأل غصون، احتارت، الكتابة لن تعود عليه إلا بمزيد من المتاعب، البلدة لا يطيقها أحد هناك، اقترحت عليه السفر إلى شمال إيران أو أي بلدٍ آخر، فترة استجمام. نام ليلته وهو يفكر، أما البلدة فهو يرى في روحه شرخًا ثقيلًا، لونًا من ألوان الهزيمة، لن يعود إلى أهله محملًا بانكسار مرٍ، اقتراح غصون رآه باهتًا، زار الشمال الإيراني من قبل، على متعته إلا أنه لا يميل إلى السفر، يميل إلى العزلة، هكذا أخبرها، والحق أنه يحاول أن يتحدى هزيمته، يرد على إقالته بكتاب جديد، ما دامت الكتب تسبب هذا الخاطر الغامض الذي لا يعرف

سببه ليكتب كتابًا جديدًا، يفاقم الغضب، يدخل في دومةِ تحدٍ وليشعل المزيد من الحرائق. في اليوم التالي جلس إلى مكتبه في الصالون، هكذا قرر عند تأثيث البيت الصغير ما دام الضيوف قلائل، وضع مسودات كتابه الجديد من مقالات منشورة، ملاحظات في أوراق متفرقة، جذاذات، كتب. ثم أخرج الخطة المكتوبة للكتاب، كان يفكر أن يضعه كتابًا متنوعًا لا يحده تخصص، متشابك المعارف، على غرار الجاحظ وغيره من الكتَّاب يودعون معارفهم الواسعة تحت مسمى واحد، بل رأى في أسلوبه تفردٌ، مزج بين الحداثة والأصالة، فقسم كتابه إلى فصول: فصلٌ أوَّل عن الحر في الثقافات والألسن، وحاول وضع نظرية لغوية ترد ألفاظ الصيف إلى جذور لغوية واحد، تشترك بها أكثر من ثقافة، خاصة التي تعد السامانية أصلًا لها، كما ذكر أنه أشرع بابًا في اللسانيات يمكن دراسة أي موضوع عبر ألفاظه وردها إلى أصولٍ واحدةٍ. وفصلٌ ثانٍ عن الصيف في الأدب، شعرًا ونثرًا، وفصل ثالثٌ عن الصيف والإنسان، ودرس فيه بعض الظواهر التي تصيب الإنسان في فصل الصيف، كالتعرق، والنحول، وضربة الشمس، وفسرها تفسيرًا علميًّا، وفصل رابع عن الحيوان وعلاقته بالصيف، فكتب عن ظاهرة السبات الصيفي الذي هو نوع من السكون تقوم به بعض أنواع من الحيوانات وتستخدمه كوسيلة للبقاء في بعض الظروف المناخية القاسية وفي حالة نقص الغذاء، فتصبح بعض الحيوانات التي تتغذى على النباتات خاملة وتتوقف عن التغذية وذلك استجابة لارتفاع درجات حرارة الجو، وذكر من هذه الحيوانات: السلحفاة المرقطة، والدعسوقة، والضفدع المقلم، والسمكة الرئوية. وفصل خامس عن الصيف والغضب، فكتب متعمقًا عن دوافع الشر وعلاقاته بالطقس، جاعلًا علاقة وثيقةً بينهما، بل أهم نوازع الإنسان نحو الشر هو ارتفاع الطقس ودلل على ذلك بإحصائيات، وبالغ في تحليل تلك الإحصائيات المستلة من تقارير في المجلات. أما الفصل السادس فعن الصيف والانقلابات، أو الثورات، وتوصل إلى نتيجة أن الغضب الجماهيري على السلطة يبلغ في الصيف مستدلًّا على ذلك بمقتل الملوك في ثورة 14 (تموز)، ووضع في هذا الفصل مقالًا ظريفًا

سبق أن كتبه عن المختار. ثم خاتمة. نظر إلى مادة الكتاب التي تكبر، وشرع في تصفيتها وإعادة تدوينها، فرأى في العمل مشقةً بالغة. تحولت الكتابة إلى أعباءٍ تطلبُ صبرًا وتفرغًا بعيدًا عن مهنته التي عفتها نفسه بعد ذلك اليوم، أطال التفكير، تذكر حلم غصون بإكمال دراسة الماجستير. في اليوم التالي قصد السفارة اللبنانية في بغداد لمعرفة برامج الماجستير المتاحة هناك والجامعات التي تسمح بالدراسة، بعد شهر واحد كان سفرهما إلى بيروت، لما طارت الطائرة شعر بحريةٍ كبيرةٍ، أنفاسه تفتحت مثل ربيعٍ أطل بعد طول الشتاء فتفتحت الأشياء المستغلقة بعد طول الصقيع، نظر إلى غصون متأملًا، قال لها إنه يولد من جديد، تبتسم، تقبض على يديه وتطنُّ أن الذي قاله من مجازات كاتب، أو متفلسف جديد، لكن محمد على عادته، جديٌّ إلى أبعد حدٍ، وصل إلى بيروت، راحا إلى الجامعة الأمريكية لبيروت وهيئا لنفسيهما مكانًا جديدًا، استأجرا شقة، اختارت قسم تاريخ الشرق لتكمل فيه الدراسة، قد يستغرق القارئ وهو يرى زوجة خال فرج الممرضة تدرس التاريخ، لأن غصون درست التاريخ لا التمريض، لكن بعد الكارثة التي حلت بالقرية أخذها أبوها متطوعة في المستشفى تتعلم الحقن والتضميد، فعندما تزوج ابن عمها عياش النذير وعمت الأفراح القريةَ واحتشد الناس من كل جانب وجاء أحمد العلوان مع فرقته يتغنى ببطولة القبيلة التي لا يعرفها أحد ويضرب الطبل على صوته وبدأ الرجال يرقصون «الجوبي» على صوته، وهناك أخرج عمها شكري النذير بندقيته، لم تكن عاديةً، كانت كلاشنكوف لامعة أصيلة، اشتراها بدم قلبه بعد موسم الحصاد وصارت أعجوبة، بندقية سحرية من الاتحاد السوفيتي لم يحمل منها سواه، لفها برداءٍ عنده، وطواها في خزانة الملابس، ووعد أن لا يرمي بها أحد حتى عرس وحيده عياش الذي خطب ابنة خاله سالمة، فنفرت منه بفعلِ سحرٍ لامرأة عشقت عياش، وهو الآخر هام بها، غجرية، ترقص في الأفراح، حلف أن لا يزوجه إياها، قبض على ولده ودار به على الأولياء، فلما اقتنع أنه عاد لرشده بعد أشهر طلب يد علية بنت نواف المطر، وزفت إليه، وبينما تجمهر الناس في حديقة البيت راقصين، خاصة بعد العشاء الضخم، فقد نحر شكري ثورين وطبخهما، أخرج

الكلاشنكوف ليطلق بها لأول مرة والناس متخمين، رمقوها بسعادةٍ غامرة وهي تتراءى بين يديه مثل نجوم بعيدة المنال، سحبها وبيد واحدة رفعها والابتسامة لا تفارق محياه، ضغط على الزناد فارتجت يده وكأن قوةً خفيَّة أنزلت الكلاشنكوف من يده وتوزع الرصاص كالمطر الهاطل على الحضور، تعالت الأصوات واختلطت الأجساد ويد العم شكري تلعلع بذلك الجنون الذي يحصدُ الأرواح وينفر الدمُ، ليس الكلاشنكوف المجنونة وحدها من جعلت الركض المجنون، بل الذعر؛ تحولت الحديقة إلى هرجٍ طاغٍ، تلاحمت الأجساد كأنها لم تبصر، فئران خائفة ومن سقط أرضًا دعسته الأقدام، حتى إذا كفت البندقية عن الرمي، نظر شكري إلى لحظة الصمت التي تلت الهرج، صمتُ الموتى، ودماء تفيض على الحديقة كأن جيشين تلاحما لا بندقية واحدة. بحث عن ولده عياش، نظر في الجموع النائمة والتي تئن فلم يره، ثم ركض كالمحموم يقلب هنا وهناك عند مقعده الذي يتوسط الحديث، فرأى كومة من الأجساد المجروحة، قلبها فرأى جسده، حمله وهو مغطى بالدماء، شق ثوبه الأبيض، لم يكن به إلا رصاصة في فخذه، أراد طبيبًا يضمده، لم يجد، عياش اختنق من الجموع التي تكومت فوقه، دقائق ثقال مرت وهو مشغول بولده حتى توافدت جموع مسلحة، ثائرة ولاطمة، آباء وأبناء المصابين، دخل حمدي النذير والد غصون على أخيه الباكي على ولده، كمشه بقوة، صرخ به، لكن أبا عياش كان في ذهولٍ، خرج حمدي يهدئ الجموع، ويبحث عن طبيب، ذهبت سيارة إلى سامراء تأتي بالأطباء الذين تأخروا. عند الصباح مات سبعة عشر رجلًا، منهم عياش النذير الذي نزف حتى مات. مصاب جعل حمدي يبيع كل أراضي العائلة وممتلكاتها حتى يفدوا القتلى. وفي ظلِّ مرحلة الإفلاس التي طالت آل نذير قرر حمدي أن يعلم ابنته التمريض لتداوي الناس ولكيلا تترك الجرحى يموتون من دون إسعافات أولية. أوشك شكري على الجنون بعد موت ولده، صار يهتف ببلاهة: «*جرح في رجله ويموت؟ لمَ يا الله*». مما جعل الناس يصفحون عنه ويرضون بالمال الذي قدمه أخوه حمدي، بل عطفوا عليه، وظنوا أن الفتاة الغجرية التي سحرت ولده كانت ساحرة عظيمة، فسحرت شكري وهي التي رمت بالبندقية وقتلت الناس.

-38-

مطرُ الصيف

باشرت غصون بالدراسة، تزامن ذلك مع أول حملٍ، بينما تفرغ محمد لكتابيه، ابتعد عن بغداد بإجازات متراكمة يوقع عليها الدكتور حمد، ينظر في سجل الإجازات، يمتعض، ثم يوقع كالمُكره. وهناك شرع محمد في تأسيس حياةٍ جديدةٍ، يستيقظ مع غصون عند السابعة، يوصلها إلى الجامعة، يذهب إلى مكتبتها ويشرع في التحرير والقراءة، ويبقى على هذا الحال إلى أن تخرج بعد الظهر، تبدأ فقرة المشي بعد الخروج من الجامعة مع غصون، يأكلان الشاورما أو الفلافل، يريدان حياة من غير إسراف، وتناسب الدخل الذي يصله من بغداد. وضعت قبيل الربيع مولودها الأول، سماه حاتم، وبدأت غصون تعيش اكتئاب ما بعد الولادة، القلق من دراستها، مستواها تذبذب، الخوف الدائم على حاتم، يوصلها إلى الجامعة ويعود للطفل، ما يصلهم من نقود لا يكفي لجلب مربيةً، وقرر أن يعيشا بمستوى سيصل عما قريب إلى الكفاف.

قالت غصون فجاءة: «اتصل بشيخ وعد الله وليبعث لك مالًا».

استحى أن يقول لها إنه فكر فيه منذ زمنٍ، فطرد الفكرة، أثقل عليه في جامعته، أيعود في زواجه وحياته التي ارتضاها ويطلب منه؟ إنها سلسلة من الخيبات المريرة لأبيه، لم يظفروا منه بشيء. هو فخر له، لا يتجاوز هذا الحد، يزداد ألمًا عندما يذكر ما أخبرته هادية به، عندما زارهم للتعزية، باع الشيخ وعد الله الأرض الفوقية، لأجل دراسته!

تمر الأيام ثقالًا، يتعطل مشروع نشر كتابيه لأسباب فنية كما يقول الناشر، لا يفهم ما يعنيه لكنه ضجرٌ. في الوطن والغربة، خيبات متتابعة، يشعر نفسه منبوذًا، رمى شهادته بسلة المهملات، وتحول إلى مربيةٍ. شرعت غصون في تحضير رسالة ماجستير عن «التفكير الفلسفي عند أبي حيان التوحيدي»، وبعد إقرار الموضوع وشرعت في البحث والكتابة الأولية عرفت أنها أخطأت في الاختيار، وقالت لمحمد بيأسٍ: «الموضوع طويل ويحتاج إلى وقت ودراسة!».

- حبيبتي، أنا معك!
- يعني المفروض موضوع بسيط، دراسة لحالة اجتماعية في دولةٍ ما، جهود مؤلف في كتب ما، لا أبا حيان.
- لا تحزني، سأعمل معك، أنا من عشاق الفلسفة، وكدت أهجر الطب مرة بسببها.

تحول البيت إلى مكتبةٍ، تخرج صباح الاثنين والخميس إلى الجامعة، تأتي بما تستطيع من كتب، ثم تشرع في قراءتها وكتابة الملاحظات، يتغديان عند الثالثة مساءً، وهو في الغالب شيء خفيف، بعد العصر تشرع في الكتابة إلى وقت متأخر من الليل، ومهمة محمد تتوزع بين العناية بحاتم والطباعة على الآلة الكاتبة التي اشترياها بعد أن استغنيا عن وجبة العشاء، بل يكتفيان بحبتين فاكهة أو شيء آخر خفيف. يحسن الطباعة مثل خبيرٍ، فقد استعملها منذ وقتٍ مبكرٍ. وجهده في الطبع خفف المهمة، أحيانًا تكتب على الورق كتابةً أوليةً، ثم يكتب على الطباعة كتابة منقحة فيها أسلوب أكاديمي رفيع

بحكم خبرته في كتابة المقالات والتحرير، حتى إن المشرف تعجب من كتابة الفصل الأول، وقال مبتسمًا: «*أسلوب ينمُ عن حسٍّ فلسفي*»! احتفيا تلك الليلة، وخرجا برفقة حاتم إلى مطعم شعبي، أكلا فتة، ثم مارسا المشي مع حاتم لأول مرةٍ، يخطو ويلحقانه، وقد يسبقانه فيركض بخفةٍ.

***

استيقظ ذات صباح على طرق خفيف، فتح الباب، عامل البريد يحمل رسالة من بغداد، قرأ المرسل «حمد العاني»، دخل متأففًا، شعر بضيق هائل، لن يدعه هذا المخلوق، في تلك اللحظة لعن الصداقة، حمد خائن في نظره، رغم الإجازات التي لم يمنحها مدير في تاريخ الطب لموظف، رمى الرسالة على طاولة الطباعة.

استغربت غصون من تصرفه: «من؟».

- حمد.
- افتحها.
- لغوه المعتاد عن الوظيفية والمثل العليا.
- وما بها مثله؟
- فارغة مثل وجهه.
- بالعكس، حمد إنسان وفيٌّ، لولاه ما كان هذا حالنا.
- حالنا؟ علينا أن نبكي على حالنا، تعرفين نحن لا نأكل إلا وجبتين، لا نأكل لحمًا، بسببه، هو من أقالني من وظيفتي.
- كفى، حمد صديق رائع.

فقال بغضبٍ قاصدًا إنهاء الحديث: «غصون!».

تقدمت نحو الطاولة تناولت المظروف وفتحته، صمت تفجر في الصالون، لم تحكِ شيئًا، بينما محمد يترقب رغم تمثيله بلا مبالاة، أنزلت الورقة ونظرت

إليه بأسى، تساءلت عيناه بعد أن خنقته اللحظة وقد أدرك مصابًا وقع، تيبست حنجرته فلم يسأل. فقالت: «البقاء لله..».

- ....

- الشيخ وعد الله!

أيتها الريح المصفرة، أيها المطر الذي تفجر في السماء، أيتها الثلوج التي تغلق الطرقات، أما من طريق.. يجلس خائرًا، يخنقه البكاء، يستدعيه فلا يأتي يريد الخروج وإذا بالسماء تتفجر غضبًا ورعدًا، يخرج وهي تمشي خلفه وتبكي وهو يسير ببلاهة، ماذا كان يريد لحظتها؟ اختراق المطر والرعد والحدود والبحار ويصل إلى تلك البقعة المنسية؟ البكاء مثل أي موجوع؟ توقف، نظر إليها ثم بكى، جلس في منتصف شارع فارغ، انقطعت المارة بفعل المطر، كان يتخيل أن السماء تعوي معه، فبينما بلدته تشوي الوجوه من الحرارة بيروت تبكي، تنزف، جلست معه، لا تدري أتمسح الدمع أم المطر، كل شيء كان سائلًا مدرارًا.

-39-

وراء الصقيع

في رسالة الدكتور حمد هناك كثير من الأشياء التي حاول محمد تفسيرها، الأيام جرت هناك بشكلٍ مقلوب، يقول حمد إنه يرفق رسالة زوج أختك المختار أبو حبيب، متى تزوج المختار هادية؟ ويقول إن فرج ضائع، هوة عميقة لا تعرف قاعًا، جهز أغراض السفر التي تأخرت غلى مطلع الشهر واكتفى بمكتوب، خاصة بعد إصرار غصون على السفر ومشاركته حزنهم الكبير. تأجل العمل على رسالة الماجستير والكثير من المشاريع، ومنها مشروع السفر إلى نيويورك الذي طرأ عليه في الفترة الأخيرة، فقد صادق الدكتور يحيى الحمصي، كاتب وطبيب سوري، التقى به مصادفةً عند ناشره، تعارفا، أبلغه يحيى أنه في زيارة لأهله في حمص، ويتردد على الناشر في بيروت، ويعيش في أمريكا. تعجبَ محمد. فشرح له الحياة هناك، من عملٍ في أحدث المستشفيات، وحرية وسقف من الكرامة المنشودة.

ثم اتجه يحيى إلى الناشر: «يا عم هناك ننشر كتابًا جيدًا فقط، هنا على المعارف والعلاقات والواسطة، وإذا كتبت شيئًا خارج المألوف قد تذهب وراء الريح!».

ثم يضحك، يعلق في ذهن محمد «وراء الريح»، عندهم «وراء الشمس»، المعنى ذاته أم اختلاف؟ سأله فيما بعد وهما يرتشفان قهوة على البحر: «في أمريكا، عندهم وراء الصقيع؟» يضحك يحيى، كان طويلًا، كهلًا، لكنه يتفجر شبابًا وحيوية.

يقول له: «هناك حرية، شيء عظيم، مصطلح نعرفه ولم نعشه، ستحس الحياة تمنحك أسرارها وتجلياتها وملذاتها!».

تكررت اللقاءات كلما سنحت له فرصة الفرار من غصون وطفلهما، يقصد مقهى الريس على الشاطئ يدمن الجلوس فيه يحيى قبل الأوبة إلى أمريكا. يشعر أنه جاهل، يصارح يحيى بهذه الفكرة، فيعود الأخير للضحك، «كلنا جهلة في هذه البقعة من العالم! العلم ليس كراسًا فحسب، العلم من شروط الحضارة الإنسانية لكن ليس كلها». يتنفس هواء البحر، ويتنفس معه أفكار يحيى، يعود مهمومًا، بغداد لم تعد تصلح له! هذه النتيجة التي توصل إليها بعد طول التدبر. غصون لم توافق، لن تترك أهلها وبينهم محيطات، لأن الدنيا في نظرها «موت وحياة».

تقلع الطائرة نحو بغداد وفي الرأس أسئلة وحزنٌ، وطلب عمل حمله ليحيى الحمصي، في المطار كان الدكتور حمد ببدلته وأناقته المعتادة، صعدوا السيارة نحو الأعظمية، تفاجأ بقول محمد: «أنزلني في كراج العلاوي..».

- لمَ؟

- أروح للديرة.

بلا اهتمام قال حمد: «هادية في الفلوجة تبحث عن ولدها الضائع».

- كيف حصل؟

- قدر!
- مع أمي؟
- أمك امرأة كبيرة، مع زوجها أبي حبيب.
- عليه اللعنة.
- ابن ناس، تزوجها في المحنة لأجل المساعدة والبحث عن ولدها.

فقال بغضب: «بل استغلها!».

- كفى يا محمد، امرأتان وحيدتان، من يساعدهما في العثور على الولد؟ لا بدَّ من رجلٍ، جاء إليَّ وترك رسالة لك.

وصلا إلى البيت وقد خيم المساء، وضعا فكرة للعمل، يذهب في الغد الباكر إلى المستشفى، يباشر مهامه كطبيب وليعود راتبه تامًا من غير قطع الإجازات، حتى تتحسن ظروفه في الأيام القادمة التي لا شك تحتاج إلى مصاريف كثيرة، وقد أدرك حمد بفطنته ما يعانيه رفيقه من شظف العيش. بعد انتهاء الدوام يقصدان الفلوجة وتحديدًا بيت خلف عبد المطلب.

-40-

المدرسة الآصفية

عبد *العزيز السالم*... رددت هادية الاسم، هي كل ما تعرفه، فقد كانت غايته أن يخدم هذا الشيخ إن لم يصلح طالبًا. استغربَ خلف عبد المطلب والشيخ علي على حدٍ سواء. استفهم المختار، فقال خلف: «الشيخ عبد العزيز أخذه أهله إلى سامراء قبل شهورٍ، تمرض، وسافر إلى لندن وبترت قدمه على ما أذكر».

فقال الشيخ علي: «رجلٌ مبارك، أصيب بالسكر، ولم يرحمه، ذهب إلى الإنجليز الله يلعنهم ومنذ أن عاد من لندن لم تطب له صحة أو يرق له مقام، تحولت حاله –حسب ما يزعمون– إلى ألمٍ متراكم».

فقال خلف بامتعاض: «يا شيخ، وهل رأيت خيرًا من أعداء الدين؟ فكيف لهم أن يداووا هذا الشيخ المبارك؟!».

فسأل المختار: «وأين ذهب هذا الشيخ؟».

– إلى ديرته، سامراء.

- لمَ لا يكون الطفل قد لحقه إلى سامراء؟

ضحك خلف: «لوصل خبره، الشيخ مشهور وكبير بالسن، لو وصل إليه لبعثه إلينا. ربما شيخ آخر، لا يعقل أن جد الولد لا يعرف أن شيخ عبد العزيز ترك الفلوجة، ربما وجهه على شيخ آخر، وزوجتك نسيت».

- ربما.

- لنسمع ما تقول.

قام خلف ونادى أم أنور زوجه التي أرسلت هادية إلى الديوان، فسألها خلف: «متأكدة شيخ عبد العزيز؟».

- أي.

- لكن الشيخ كبير وعاد لمدينته، قد يكون أحد هذه الأسماء: أيوب محمد فياض، إسماعيل عبد الرزاق محمود، خليل محمد فياض، شاكر الكبيسي، طه جابر العلواني، عبد القادر العاني، فرج توفيق.

- لا أحد من هذه الأسماء، عبد العزيز سالم السامرائي.

احتاروا، ربما يعني مدرسته وأثره، ولا بدَّ أن الصبي قد قصد المدرسة عينها. في الطريق شعروا بتعب المختار، ماذا خالجه وقتها؟ لقد كان عقد القران ظفرًا مؤجلًا حافلًا بالشروط، بحث وركض. وصلا إلى الجامع الكبير الذي يطل على النهر، لقيهم صايل العلواني، يبدو أنه تولى إدارة المدرسة بعد رحيل الشيخ ومرضه، رحب بهم وأجلسهم على دكة في الحديقة، أمامهم الحرم وعن يمينهم النهر وجو منعش بدأ يحف بهم، الطلبة صغارًا وكبارًا أمامهم، سأله الشيخ علي ألم تعثر على صبي يسأل عن شيخ عبد العزيز؟ نظر إليه بغرابة، ثم قال: «كل الناس هنا تسأل عنه، لقد كتب اللهُ له القبول في قلوب الخلق... سبحان الله». فقال المختار: «لم تجب عن سؤالنا؟».

نظر صايل إلى المختار بغضب: «أجبتك، الكل يسأل، فكيف لنا أن نعرف صبيًّا؟».

فقال خلف: «يا شيخ اعذره، ولدهم ضائع منذ شهر تقريبًا، جده أتى به على الشيخ، ومات في الطريق، وعلمنا أنه دخل الفلوجة باحثًا عن الشيخ الجليل، فلا بدَّ أن يكون هنا!».

قام شيخ صايل ونظر إليه بريبةٍ أدركها الشيخ علي: «أنا علي الإسماعيلي، تبرعتُ بأرضٍ على أطراف الفلوجة للمدرسة، وتحديدًا للشيخ حديد، تعرفه؟».

- أها، أنت صاحب أرض النور قبل ثلاثة أشهر سلمتها لشيخ حديد؟
- بالضبط.
- حياك الله، الذي لا يعرفك ما يثمنك...
- صح.
- اعذرني.
- لنجد الولد أولًا.

جالوا على الطلاب الصغار الذين يعتقدون أنهم بعمر فرج الله، رغم توكيد الرجل على أنهم لا يستلمون العابرين، فهم ليسوا ملجأ التائهين إنما مكانٌ للعلم. يدورون ولا شيء يلوح في الأفق، تفحص المختار الوجوه الغارقة بلباسٍ فضفاضٍ أبيض، وطاقية بيضاء هي الأخرى، ويتحلقون حول معلم هنا وشيخ هناك، لم يكن فرج بينهم، بل إن معظمهم تجاوز الثانية عشر وفرج عشر سنوات على وجه التقريب. خرجوا الثلاثة، تيقنوا أنهم يحتاجون إلى معجزةٍ حتى يعثروا على الصبي، تحلقوا حول طاولةٍ في كباب الفلوجة الشهير، كانوا مكدودين حدَّ القهر. والغريب أنهم لم يطلبوا كبابًا، شهيتهم انعدمت، سوى شيخ علي الذي طلب شحمًا مشويًّا.

استغرب غانم وهو يطالعهم من بعدٍ، فلما رأى شحة طلبهم حشر نفسه بينهم: «يا زلم، من المعيب، تجلسون ولا تأكلون! تريدون الناس يأكلون وجهي، أنا غانم نعيم، لا أطعم الناس!».

فقال علي دون اهتمام: «ما عليك عتب سيد غانم، لكن مصابنا كبير».

- وما ذاك؟

- ابن زوجة أبي حبيب، ضائع، منذ أكثر من شهر، في الفلوجة، على ما نعتقد، لم نعثر عليه، تعبنا.

صدمةٌ نبتت في وجهه، لم يعرف كيف يجامل، خفت صوته العالي، حتى أن علي سأله: «هل أنت بخير؟».

فقال وكأنه يستدعي الكلام من آبار عميقة: «أفكر في الصبي، ما صفاته؟».

فقال المختار: «طويل من غير إفراط، في العاشرة من عمره، شعره أسود خفيف، أنفه فيه طول.. يرتدي ثوبًا من غير طاقية، ثوب أزرق صيفي..».

ثم سرح المختار كأنه يتذكر ما لقنته هادية، وبقي يستفسر عن ضياعه ومكانه وهم يرفدونه بالمعلومات حتى تلون وجهه، وثقل جسده، وصمت على نحوٍ مريب، ودعاه، وفي السيارة قال خلف: «مسكين حاج غانم، تأثر جدًّا».

فقال علي وهو ينفث سيجارته: «رجل بألف، حليبه طاهر»!

-41-

{وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَوْحِ اللَّهِ}

لما شرح المختار تفاصيل البحث الذي تجاوز الشهر وجدت هادية أن النتيجة صفر، خيبة كبيرة، تساءلت: «بعد كل هذه المدة لا شيء؟».

- حتى المدرسة الدينية عند الجامع الكبير التي كانت أملًا كبيرًا لم نجد، شيخ عبد العزيز رجلٌ مسنٌ، وتفضل علينا الشيخ واتصل بالمدينة هناك، لا يعرف الشيخ شيئًا!

كتمت في نفسها، تركت الديوان ودخلت عند أم أنور، الآمال تتقطع، بقيت تفكر حد الاختناق، لم تنم ليلتها، ضحى اليوم التالي خرجت إلى المدرسة الآصفية، جلست عند باب الجامع الكبير ملتفة بالسواد، لم يبن منها سوى عينين خاويتين. تراقب بذهنٍ متَّقد الأولاد، الداخل والخارج، تحفظ هيئة ولدها، لعله منهم ولم ينتبهوا إليه ينظر إلى الجمع العارم الذي يتموج، تقول في نفسها لم تضن عليَّ المنحة الإلهية؟ ماذا يحصل لو كان فرج منهم؟

فيما بعد عندما يقص علينا أبي مأساة أمه الطيبة المباركة هادية بنتُ وعد الله -رحمه الله- يتأثر، يزعم أنها كانت في تلك اللحظة تستحضر حديثًا قدسيًّا، بمعناه لا لفظه، تتوحد وتتمنى أن تعيشه حقيقة «ولو أنَّ أولَكم وآخرَكم وحيَّكم ومَيِّتَكم ورَطْبَكم ويابِسَكم اجتمَعوا في صَعيدٍ واحدٍ فسَأل كلُّ إنسانٍ منكم ما بلَغَتْ أُمنِيَتُه فأَعطَيْتُ كلَّ سائِلٍ منكم ما سَأل ما نَقَص ذلك من مُلكي إلا كما لو أنَّ أُحُدكم مرَّ بالبَحرِ فغَمَس فيه إبرةً ثم رفَعها إليه ذلك»... تريد قطرة من ذلك البحر، ذرة من خيرات السموات والأرض على صورةِ فرج. رأت واحدًا من بعيد، يتوضأ للصلاة، ظننته فرج. خطت نحوه وهي تغرق في خواءٍ جارح، وقفت عنده، تلمسته وهو يتوضأ، نظر إليها مذعورًا خيل إليها فرج: «تعال حبيبي... أنا ماما..».

قفز من مكانه وكاد يتزحلق.

- ما بك؟ نسيت؟ فرج حبيبي...

تحاصر الصبي فيوشك على البكاء: «خالة أنتِ مخبولة؟».

- أنا أمك.

يريد أن يقفز فلا تطاوعه بنيته، يأتي من خلفها صبيٌّ آخر، يغمز له رفيقه، ومن بعده توافد الصبية متواطئين، تتقدم بعين باكية: «يلا نرجع».

تمد يدها وقبل أن تصل إليه يمد الذي خلفها يده على عباءتها من جهة الرقبة ويجرها بقوة جعلت هادية تسقط أرضًا في محلات الوضوء وتستل العباءة السوداء بيد الصبي لتتضرج بالماء عارية الرأس، فقد كانت يده قوية حتى أخذت مع العباءة الشال الذي تلفه حول رأسها، تعالت الضحكات العاليات، لم تصحُ من غفلتها، بل قامت تبحث عن الصبي بجنون، طار الصبي إلى حديقة المسجد والصبية يركضون وراءها حتى رآهم شيخ وطردهم، أتى أحدهم بعباءتها، ألبسها إياها وأمرها أن تغادر المكان! مثقلة بالجراح كانت، بين يقظةٍ وغياب، تطوف الشوارع حتى وصلت بعد وقت طويل إلى بيت خلف، كان وضعها مأساويًّا، دخلت إلى الحجرة المخصصة ونامت من التعب.

في منامها تجلى الشيخ وعد، بطريقةٍ نورانية ساحرة، اقتربت منه، تلمسته كأنها تكمش غيمًا، كان أرق من النبع، سألها عن حالها، فقالت بلا تردد: «تعبى!».

ابتسم، قال لها: «الحياة كلها تعبٌ، المؤمن وحده من يحمل النور».

- نور؟ لا نور في بيتنا، أعيش في ظلامٍ.

- اصبري.

- إلى متى؟

- إلى أن يشاء الله.

- ومتى تقتضي هذه المشيئة؟

- لا أعلم!

- أتريد مني الصبر ولا تعطيني الأمل؟

- الله يريد منك الصبر، هل تظنين التعامل مع الله على المقايضة؟

- يأخذ مني فلذة كبدي.

- سيعود.

- في القلب حزن.

- الحزن لا يليق بالمؤمن.

- ليس حزنًا عاديًّا، عميقًا، وتحول إلى طعنة!

بدأت هيئته المهيمنة على وشك التلاشي، تمسكت بجلبابه: «أبتاه!».

- اصبري، ولا تيأسي من روح الله.

- غبتم، أنا وحيدة.

- «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا».

استيقظت من النوم، أم أنور على رأسها، سألتها: «هل أنت بخير؟».

قامت هادية من رقدتها، فبوغتت بصداعٍ في رأسها، أسندتها أم أنور وأعادتها لرقدتها، ثم أتت بحليبٍ ساخنٍ وخبز وكوب ماء. انتبهت هادية بعد الصداع الذي تضاعف في رأسها إلى خواء بطنها: «منذ متى وأنا نائمة.. كم ساعة؟».

- يومان.

قالت بأسى: «كم؟».

- يومان... كنتِ محمومة... أين ذهبت حتى عدت على ذاك الحال؟ دقيقة، لأبشر خلف حتى يقول لزوجك...

ثم بصوت ذات مغزى: «الرجل كاد يجن».

-42-

مهابة الشيخ الجليل

كل واحد منا يتخيل أنَّه بطلٌ لحكايته وحده، من دون أن نعرف بوجه أو آخر أن هناك أبطالًا آخرين يملؤون تفاصيلنا وربما يتحكمون بمجرى الأحداث، في تلك الحالة لن نكون أبطالًا، إنما هوامش تسير وفق خط حكائي لسنا كتَّابه. في حكاية فرج الله كان عبد العزيز سالم وطلابه وشيوخه يمرون في الحكاية على نحو عابر لكنه مؤثر، لعل الخيول التي كانت تغادر هيت ذات فجرٍ صيفيٍّ ورآها الجد الأول وعد الله مصادفة وهو يقصد سوق هيت أثرت في ذاكرته، وتمنى لو أن الخيل تحمله أو أي أحد من ذريته، كان الشيخ عبد العزيز يغادر مدرسته في هيت ويقصد شيخه أحمد الراوي بقصد الإجازة. عاد وعد الله إلى بيته مهمومًا ذلك اليوم، فعلى الرغم من أن هادية لم تتجاوز السادسة عشر بعد، وولده محمد ابتعد عن أفكاره، تمنى حفيدًا يعوض.

مضت الخيول تقطعُ خطًّا صحراويًّا يشتدُ كلما مضوا به. بعد العصر دخلوا سامراء وقصدوا المدرسة العلمية، شد الشيخ عبد العزيز خيله على

باب المدرسة ودخل مع صحبه إلى المدرسة، كان القرآن يصدحُ من جهة الإمامين، خفف حمله وغير جبته ثم توضأ وقصد حضرة الإمامين، زار المرقد الشريف، ثم جلس يتلو يس، وكرر الإخلاص ثلاث مرات، فسمع الأذان، صلى المغرب، ثم خرج يحث الخطى إلى الجامع الكبير الذي تتفرغ منه المدرسة العلمية. دخل فحفته السكينة، رأى شيخه أحمد الراوي تحيط به المهابة، شعر بانشراح غريب في أعماقه، وقار جليل وحوله الطلاب، هو الشيخ الذي يقول عنه: «لا نمشي إلا خلفه إذا سار ولا نقوم إلا إذا قام ولا نجلس إلا إذا جلس، لم نضحك قط في حضرته إلا ابتسامة الخجل».

درس في السيرة النبوية والشمائل المحمدية، بين المغرب والعشاء، عدد الطلاب غفير، قد يصل إلى سبعين، يقترب فكأنه يرى دوحةً غناء، لذةٌ لو يعرفها الملوك لقاتلوهم بالسيوف لأجلها، جلس في آخر المجلس واللذة تسري فيه، خدرٌ يزيل عنه وعثاء السفر ومشقة الترحال، كان الشيخُ يشرح تفاصيل الهجرة النبوية، انتقل من بقعةٍ على هامش العالم إلى مرحلة رجل يصنع العالم، وسرى الخدر حتى تحول إلى ما يشبه الغفوة، لم ينتبه إلا والشيخ على رأسه وينياديه: «عبد العزيز؟».

فز من غفوته، وقام نحو الشيخ مقبلًا يده.

- تعال.

أخذه إلى غرفته العارية إلَّا من مقاعد خشبية متآكلة، وكتب على طاولة صغيرة، وخلفها جبته.

- متى وصلت؟

- قبل قليل.

بدأ يسأله عن الأوضاع والأحوال، وعن هيت وما يجورها من تخومٍ، ومسيرة الدعوة إلى الله، فانطلق يتحدث عن الطلاب التي تتوافد وتتخرج وتسير في الآفاق ينشرون دعوته. قامت الصلاة، صلوا العشاء، بعدها عادا للغرفة

ذاتها، أمر الشيخ باستدعاء مرافقي عبد العزيز، وبعض الأساتذة، وعلى ضوء المشاعل الباهتة أكلوا عشاءهم، شواءً من السوق القريبة، وهي من المرات القلائل التي يأكل فيها الراوي عشاءً دسمًا، احتفاءً بتلميذٍ نجيب. بعد العشاء والشاي وخلو الغرفة، وقبل أن يستأذن بالخروج لما يعلم من عادته في النوم المبكر حتى يستيقظ لصلاة الليل قال: «شيخي، أتيت وأنا أرجو أن تمنحني ما أفاء الله عليك من البركات، أريد إجازة، أمنحها للطلاب، وتكون حجة لي بإذن الله».

فقال متباطئًا: «لستُ أهلًا لها».

- بل شرف لي!

رمق الشيخ أحمد النار الخافتة في المشعل والتي توشك على الانطفاء، ثم قال: «راجعني غدًا، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا».

قبل يده وخرج إلى نومه، ولكن أنى له النوم وهو مقبل على أمر عظيم، كلمات الشيخ غامضة، تجمع بين الهدوء والتردد، مؤكد أنه سيستخير ويسأل الله، ماذا لو أن المولى لم يلهمه إجازتي؟ ضاق صدره، قام من فراشه، توضأ من دلو الماء الذي تركه عند رأسه وشرع في الصلاة، يسجد فيطيل السجود والتوسل.

-43-

رجل يريد موعده

يجلس الشيخ أحمد على دكةٍ في حوش المدرسة العلمية، بعد أن أتم ورده وذكره الذي اعتاده بعد صلاة الفجر، وقبل أن يقوم لصلاة الضحى شرع في كتابة هذا الكتاب، تناول الورقة والقلم الإنجليزي الذي أهداه إليه تاجر سامرائي ورأى فيه راحة تغنيه عن المحبرة، وشرع يكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وبعد..

فيقول العبد الفقير كثير المساوئ السيد أحمد آل السيد محمد أمين الرفاعي الراوي، قد طلب مني الإجازة بالطريقة العلمية الرفاعية الولد القلبي الفاهم عبد العزيز السيد سالم، وكان ذلك بعد أن تشرف بإجازة العلوم العقلية والنقلية في العام الماضي عن يد الفقير وغيره من علماء العصر، وعين مدرسًا للعلوم الدينية والعربية في هيت، وأفاد ولله الحمد واستفاد ولما حضر في زمن العطلة لسامراء طلب مني هذا الطلب فصرتُ أدافعه وأوعده من حين لآخر، حيث أنني أعرف نفسي لستُ من فرسان هذا الميدان ومن كثرة إلحاحه استخرتُ الله تعالى يوم السبت المصادف 5 شوال المبارك/ 1362هـ على مهاجرها أفضل الصلاة وأزكى التحية، فرقدتُ بعد صلاة الصبح وقرأت الأوراد المأثورة على مصطبة مدرسة سامراء بقرب محل مصلاوي لفريضة الصبح، فحصلت الإشارة من جانب سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بإجراء ذلك والألفاظ التي ضبطها عنه صلى الله عليه وسلم هذا نصُّها: «رجل يريد موعده عما كتب له» ففهمت من ذلك أن إجازة هذا الرجل لطلبه أولى وأحرى، فقدمت على ذلك وأخذتُ عليه العادة طبق ما نصَّ عليه المشايخ الكرام، كما أجازني مشايخي عليهم التحية والإكرام متوكلًا على الله مستمدًّا من فيض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن روحانية أبي العلمين شيخ الطريقة، وأسأل الله العظيم أن يوفقني وإياه

وجميع المسلمين للعمل الصالح وأن يبصرنا بما هو الحق وأن يرزقنا حسن الخاتمة ولا يجعل قلوبنا غلًّا للذين آمنوا، إنه على ما يشاء قدير. سبحان رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

في يوم الأحد 6شوال/ 1362هـ

المدرس الأول لمدرسة سامراء

العلمية الدينية

أحمد الراوي».

ختم الشيخ بختمه المعهود، ثم قام فصلى الضحى وقد ارتفعت الشمسُ مقدار رمح وصار يسمع صوت الباعة والزائرين، ثم خرج وقد بدأت شمس (آب) تشتدُ على جسده، قصد حضرة الإمامين، فرأى عبد العزيز عند المقام متوسلًا، جلس عنده وهو غارق في توسله وتبتله ودموعه تبلل لحيته، دأب على كتفه وهمس: «*أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يبلغك السلام*». ثم ناوله الإجازة. فرحَ، عانقه، بكى، ضحك، كلها في ثوانٍ، ثم سجد لله شكرًا.

عندما عاد إلى هيت احتفل الناسُ به، تخطى الجمع وخطب بهم، وعظهم، وبين لهم أنه فضلُ وتكليف وأمانة، بين الجموع كان الشيخ وعد، يرمق الشيخ بإكبار ويسأل الله أن يأتي من ذريته من يسير على دربه.

-44-

ترفة وهادية.. وجهًا لوجه

العشق شجرةٌ فارعة، كثيفة الظلال، ومن يتسلق هذه الشجرة مصيره تيهٌ، هذا ما أحسَّ به غانم عندما وصل إلى البيت وطلب منها أن يعيدا فرج الله إلى زوج أمه، يتعجب غانم من أين نزلت عليها هذه القدرة على الجدل والرفض؟ تعرفه، إنه يحبُّها، لدرجة لا يتصورها عقلٌ، لذلك تمنعت، وأبلغته أن يصمتَ حتى يعرفا كيف تنتهي هذه القصة. فقال لها متعجبًا: «وكيف تنتهي؟ ولد ضائع وجاء أهلُهُ، ماذا نفعل نحن؟».

- أنت قلت زوج أمه؟
- أي.
- لكن أم فرج لا زوج لها! هكذا قال الطفل، يعني ليس ولدهم.
- تزوجت، المرأة تزوجت مختار كبيسة، وجاء هذا المختار الذي هو زوج أمه إليَّ، وقصَّ الحكاية، تزوجها كي يكون محرمًا يأتي معها.

فهتفت: «إنها خائنة لا تستحق الولد!».

ضرب رأسه براحتيه من شدة الغضب: «لمَ خائنة؟».

- تتزوج وأبوها لم يبرد جسده؟

يصمت، كمن يحرث في صخر يسألها: «وما المطلوب الآن، ماذا نفعل؟».

- نتمهل ونفتش على أهله.

- كيف؟

- ألتقي بأمه!

يصمت. فتعلق: «قسمًا بالله إن لم توافق أترك البيت وأهرب!».

خارت قواه، لا يعرف كيف يخرج من سجنه، المرأة في طريقها إلى الجنون، لا يعرف كيف أقنع الثلاثة بزيارة ترفة وما الحجج التي ساقها، الذي يذكره أنهم استغربوا، لكنه كذب عليهم، زعم إن «الحاجة» عارفة بالمدينة ودهاليزها، يقصدها الأيتامُ والتائهون، وأن كل فرد في هذه المدينة يعرفُ خيرها الوفير، إضافة إلى البركة التي تطرحها في المكان، لا يذكر كيف اقتنعوا، حتى إن المختار تمتم: «لعل الحاجة تقرأ على أم فرج فقد مسها لوثة جنون!».

***

واستعدت أم أنور لاستقبال الحاجة ترفة، كما وصفها خلف عبد المطلب زوجها، وظنتها قد تخطت الكهولة وهبطت نحو شيخوخةٍ مباركة، المسبحة لا تغادر يديها، ولسانها لا يفتر عن الدعاء، طرقت الباب ففتحته أم أنور وإذا بسيدة لا تظنها وصلت إلى الثلاثين، عرفت بنفسها بأنها الحاجة ترفة، أدخلتها والدهشة لم تنفك عنها، إنها جميلة، وجه مستدير مشرق، لكنه ليس إشراق حاجة، حاجباها عبارة عن خطين رفيعين مثل نهاية حرف الفاء إذا أحسنه الخطاط، تدلُ على خيطِ محترف عمل عليه، عيناها الواسعتان تتحركان بتوترٍ كأنها لم تعرف طمأنينة.

رأت هادية التي لم تخف دهشتها: «ما شاء الله يا حاجة، العين باردة عليك».

لم تبتسم أو تجامل، بقيت ترمقها بصمتٍ وغضبٍ يتموج في الأعماق، تشعر أن هادية غريمتها، تريد سرقة أغلى الأشياء التي تعدها ربحًا. شرعت هادية تقص عليها صفات الطفل وهيأته، وكلما تمادت في صفات فرج الله تكبر النار التي توقدت داخل ترفة حتى احمرَّ وجهها وصار عصيًّا على التفسير، ارتبكت هادية، وأدركت بدافعٍ يومض لها من الأعماق أن المرأة لها علاقة بطفلها حتى تيبست على هذا النحو الغريب.

أكملت سردها، فسألتها أم أنور: «عرفتِه؟».

ارتبكت أكثر، غمغمت بصوتٍ غير مفهوم، استحثتها أم أنور: «ماذا؟».

- لا أعرفه أبدًا... وأنا أستأذن.

- لم تشربي الشاي.

قامت بتردد كمن أصابها مس، تقدمت فاصطدمت بالطاولة الصغيرة التي عليها كأس الشاي وصحن البسكويت، سقطت الطاولة على الأرض محدثة ضجة، ثم مشت نحو الباب، لحقتها أم أنور مودعة، ولكنها خرجت من دون رد. خرجت هادية ترقب خروج المرأة وتقلباتها حتى وصلت إلى الحديقة العريضة، عادت أم أنور تضرب كفًا بكف: «ما بها؟».

- لا بدَّ أن خبر ابني عندها!

-45-

فكرة الهرب

لا مكان تهرب إليه، ماتت عاتكة منذ سنتين متألمة من مرضٍ غريبٍ، أصاب معدتها ولم يعرف الأطباء له دواءً، احتجمت في بيتها أيامًا على عادتها حتى فاحت رائحة كريهة، دخلوا بيتها أقاربها فوجدوا روحها قد فاضت منذ أيام، بكت ترفة كثيرًا لموتها الصامت، فلم يقيموا لها حتى مأتمًا. تقاسمت الورثة بيتها بكل ضراوة، لذلك هي وحيدةٌ مثل جذعٍ عتيق. تهم بحمل حقيبتها وذهبها والطفل وتهرب بعيدًا حيث لا زوج ولا كدر، فقط هي وإياه. شيء محالٌ. تذهبُ إلى خزانتها، تفتحها وتخرج صندوق الذهب، أساور، قلادتان، سبعةُ خواتم، وأشياء أخرى تكفيها معيشةً لسنوات، عدا رزم المال التي في الصندوق. تستطيع أن تأخذ ما يسد حاجتها لسنوات وسنوات، هو من دفعها لذلك، لولا تهديده وخوفه ما أقدمت. كل شيء بالنسبة إليها تغير لحظة لقاء هادية، أمٌّ خؤون، أقل توصيف، تزوجت بالجاه ونست وحيدها، مثلها لا يستحقون أطفالًا رائعين، هي من تستحق فرج، ببراءته وطيبته، وسيكبر

ولا يرى سواها. لا تريد مزيدًا من الأطفال، ولن تستحث العجوز العقور على قصد الأطباء والأولياء والعطارين وخلطاتهم التي لا تفعلُ شيئًا. تقلب الرزم المكتظة من دكانه الصغير، تحقد عليه، كيف صرخ بها عندما عادت من عند هادية، لم تفعل شيئًا سوى الصراحة المطلقة، «أمه لا تستحقه، ليست أمًّا إنما ذئبة»، سخر منها، أمهلها يومين وسيأخذ فرج للعائلة، وتنتهي الحكاية. لا تستطيع أن تتخيل أن الحكايات تنتهي بهذه السرعة، حلم الأمومة يتلاشى. تترك الرزم وتخرج فترى فرج يقلب بكراسته، يركض نحوها عندما يراها تقبل، يطوق خصرها بيديه ويستند: «ماما ترفة، بعد يومين سأذهب إلى أمي!».

نيران تنهش جسدها، تقول مجهدة: «من قال لك؟».

- عم غانم.
- ماذا قال؟
- عرف أهلي وبعث لهم، وسيأتون، يومين على أكثر حدٍ.

تنزل الدموع، تهبط نحوه وتضمه بقوة وتردد: «بحول الله».

تأخذه إلى المطبخ، تخرج الدجاجة المشوية وتضعها أمامه ويشرع في الأكل.

-46-

فرج يلوح في الأفق

لزامًا على الدكتور محمد أن ينضم إلى الثلاثي، خلف، المختار، الشيخ علي، وعلى الثلاثي هذا أن يجد حلًّا، خاصة وأن غانم صاحب دكان الكباب قد غدا مستشارًا لتحركاتهم، ودكانه محلًّا لاجتماعهم. قبل ذلك استأجر في اليوم التالي المختار بيتًا، فلا يعقل أن العائلة التي اجتمعت ستلبث عند خلف عبد المطلب رغم الصحبة الصادقة التي بينهم، ورغم إصرار الأخير عليهم. تفاجأوا لما رأوا محمد، لم يكن ثريًّا كما تخيلوا، كان سيرةً متجسدةً للخيبة، ترك وظيفته وانشغل بكتابة مقالات سببت للمستشفى التي يعملُ بها صداعًا اضطرت صديق عمره إلى تنبيهه واتخاذ إجراءات صارمة، والحق أن هذا الفقر الذي عليه دفعت المختار الذي لم يتلمس منه ودًا وسرورًا من زواجه بأخته إلى اتخاذه هامشًا، فشكله مال نحو الشحوب بسبب قلة الأكل، وملابسه التي بدت متهرئة، واصفرار غصون، وولده النحيل. حتى أنه في اليوم التالي لوصوله وأمام خلف وعلي قال: «يعني *يا دكتور كأنك يا أبو زيد ما غزيت*».

يكظم غيظه، ينشغل بموضوع فرج، ثم يقول بعدها: «*المفروض تبقى في وظيفتك... أنا لولا الآمر يأمرني بقتل الملك في ذلك اليوم الشؤم ما تركتُ حراسة الملوك!*».

صعد الدم إلى رأسه، وحرارة الجو التي دفعته نحو ارتكاب جريمة، هكذا فكر وتذكر موضوع كتابه الذي غدا أسيرًا لدى الناشر، كان غارقًا في حزنه، على أبيه الذي مات في طريق عابر، ابن أخته الضائع، أخته التي خضعت لمبتز، فقال المختار ولم ينتبه إلى أنه كمن يرش ملحًا على الجرح: «*يا دكتور المال وحده من يعصم الإنسان في هذه الحياة، المال يعني القوة، النفوذ، ومن يملكه يظفر بكل شيء... لا المصطلحات والأفكار التي تتشدق بها!*».

كانت الجلسة في ديوان خلف، فقام محمد بجنونٍ وقد خيمت عليه ثورة غضب وحمل إناء ماء كبيرًا من الزجاج، ضربه بالمقاعد فتكسر وصار سكينًا ذابحًا وجثا فوق المختار بقوة ووضع الإناء الزجاجي على رقبته وصرخ بما أوتي من قوةٍ حادًّا ومتوعدًا: «يا مجنون من أنت حتى تتحدث معي هكذا؟ أنسيت من أنت؟ أنت حرامي ومهرب ووغد وجبان، أنت استقويت على امرأة تائهة وتحسب أن مالك الذي جمعته بالحرام سينفعك، لا تعرف من أنا، قسمًا بالله أذبحك من الوريد للوريد وأتركك تسبح بدمك، وأختي تطلقها اليوم...».

أتت هادية على الصوت الزاعق، وخلف وعلي، ثلاثتهم يمسكون بمحمد محاولين ثنيه، لكنه كله تحول إلى قوةٍ مخيفةٍ، كتفاه اللتان تقبضان عليه صارتا حجرًا، حتى هتفت به هادية: «بروح أبينا وعد الله اتركه!».

وفجأة توقف، فكأن الكون كله ارتخى لحظتها، وروح المختار التي أوشكت على المغادرة عادت لوجهه المحمر، وما إن قام من فوقه حتى شرق وتداركوه بماءٍ، فقال محمد: «قسمًا بالله لو تنفس مرةً أخرى لقتلته في مكانه!».

انتقلوا في اليوم التالي إلى بيتٍ مجاور لبيت خلف، عدا المختار الذي بقي ضيفًا دائمًا عند خلف. اجتمعوا أربعتهم عصر ذلك اليوم عند دكان الكباب، كانت علاقتهم استقوت بغانم الذي صار عند حضورهم يأتي بأرجيلته

ويقدمها إلى الشيخ علي، بل هذه المرة أتى بكرسيه وجلس معهم ليتعرف على الدكتور محمد وتطورات القضية التي أضنته وحرمته النوم، فعرف الدكتور محمد الذي عنده معلومات مسبقة عرفها من فرج، تفرع حديث وأدار كؤوس الشاي من شواية الكباب وهو يردد: «اشربوا.. هذا شاي مهيل على الجمر».

فيقول خلف وهو يستطعم بالشاي: «والله يا غانم لو أنك امرأة لتزوجتك لأجل هذا الشاي فقط».

تعلو الضحكات مجلجلة إلا محمد الذي لا يطربه ضحك. فيقول غانم نعيم: «مثل المرحومة زوجتي الأولى... الله يرحمها كانت تطبخ طبخًا لذيذًا، لكن في الليل تحسها حارس ليل ينام جنبك».

فيقول علي: «أيها العجوز، ألهذا تزوجت صبية وجددت الشباب؟».

- الحاجة؟ دعني منها، ابتليت بها؟

- ولمَ؟

- العشق ابتلاء.

فيقول المختار: «لست هينًّا!».

وبينما هم على هذا الحال بوغت غانم بوقوف الملا عادل ومعه دورية الشرطة، وجه الملا غاضب، متوجس، ردد غانم وقد مقت وجهه: «أهلًا بالملا، أهلا بالشباب، يا ولد، كباب للشباب...».

قاطعه الملا: «لا نريد أكلًا يا حاج غانم، لم يكن هذا ظني بك وبشيبتك».

بلع ريقه بصعوبة: «لمَ؟ خير؟».

بهتت الوجوه وهي تنتظر، وجه الملا لم يكن رحمانيًّا، فقال: «يعني نترك عندك الصبي أمانة، ثم أقول لك اذهب يا حاج إلى الشرطة وراجعهم، تضحك علي وتقول سأذهب، وبالمصادفة راجعت الشرطة وسألتهم، وإذا بك لم تذهب، علمًا بأن هناك من أتى مرارًا وسأل عن الصبي، ما اسمه حضرة الضابط؟».

يتلو الاسم من ورقته: «فرج الله أمين».

- تمامًا، الولد فرج الذي تركته عندك!

يتصاعد أبخرة الجنون في الرؤوس الأربعة، أولهم خلف عبد المطلب وكان أقربهم إلى غانم، خنقه من رقبته بعد أن دفعه وتناثرت الكراسي وذعر العمالُ والزبائن: «يا عجوز الشر، كل هذا والطفل عندك وتبيع برأسنا كذبك وزورك؟».

فزعق علي: «والله إني لقاتلك».

أحاطوا به، تجمعت الناس وعلت الأصوات ولم تهدأ حتى ضرب الشرطي رصاصة في الهواء، صرخ بهم: «كفى!».

تفرقوا عن غانم، سأله الشرطي: «أين الطفل؟».

نظر إلى الوجوه والشرارة التي تنطلق منها، فردد: «في البيت!».

بسرعة ركب الشرطة سيارتهم ومعهم غانم ولحقتهم سيارة المختار ومن معه، وصلوا إلى البيت قبيل الغروب، دق الباب فلم تفتح ترفة، فقال الشرطي: «افتح الباب بمفتاحك».

- نسيته في المحل.

أشار إلى الشرطة بكسره، ثوانٍ وأشرع الباب، دخلوا وهو أمامهم، الباب الداخلي مفتوح، وقف بالباب ونادى ترفة فلم تجب. دخلوا أجمعين فلم يجدوا أحدًا، وصلوا إلى غرفة النوم ففوجئ غانم بالخزائن المشرعة، أخذت ترفة ملابسها وذهبها وهربت، فقال للشرطة: «شكلها هربت!».

-47-

ليلة لا نوم فيها

الليلة الأولى باتت في منزل عاتكة، ذعرت أول الأمر، عندما رأت البيت قد طالته يد حورته وأعادت بناءه، تبين أن عمها الأكبر محمود هو من انتهى أمر البيت إليه، طرقت الباب عليه، لم يعرفها، عرفته عن نفسها وادعت أن فرج ولدها، وأن عليها أن تبيت الليلة عندهم، فوافق مكرهًا وفتح لها بيت عاتكة سابقًا. أما ليلة غانم فكانت قاسية، لم ينم، بعلاقات الشيخ علي شهد الأربعة التحقيق على ما به من لومٍ ومسبةٍ لغانم، قصَّ عليهم منذ أن أتى به الملا عادل إلى اللحظة، وعن تعلق زوجته به.

فقال باكيًا في نهاية التحقيق: «سيدي زوجتي مريضة نفسيًا، منذ طفولتها وهي تعاني، أمها قتلت بجريمة شرف، عمتها التي ربتها ماتت حتى جافت جثتها، لم يرزقها الله بأطفال، فتعلقت بفرج».

فقال الشيخ علي: «أستأذن من سيدي ضابط الأمن الذي هو من أهل الخير، وأنت ألست رجلًا؟ امرأة تسوقك كالدابة، تعرف الحق وتحرف، أم

فرج، يحترق كبدها، نحكي لك، ونشتكي، وأنت أمامنا تصمت وتتنكر؟ سيدي الضابط، نريد نقدم شكوى ضد هذا الذكر، واكتب ذكرًا وليس رجلًا، وضد زوجته الخؤون، وضد الملا عادل بتهمة التستر على عملية الخطف، كلهم في السجن، أم عندكم كلام آخر يا رجال؟».

فقال المختار: «هذا هو الحق».

حدد الضابط النقطة التي سينطلقون إليها صباحًا، الصقلاوية، المفتول، بيت عاتكة. بعد ساعة كان الملا عادل ماثل أمامهم. سأله الضابط، فأجاب: «لا شأن لي، وجدت الصبي، أخذته إلى غانم باعتباره يحب الخير هو وزوجته، راجعت مركز الشرطة مرة فلم يعرفوا أهله، ونصحت غانم لكنه تنكر!».

فقال الضابط: «لمَ لم تبلغ؟».

فزعق: «وما يدريني أن زوجته امرأة مريضة؟ الذي أدري به أنها حاجة بيت الله الحرام!».

فأمر الضابط بحبس الرجلين على ذمة التحقيق.

عادا إلى البيت، لطمت هادية، وقالت: «منذ أن دخلت البيت عرفتها امرأة سوء وشر، يا ويلي، أين حبيبي، ماذا فعلت به؟».

-48-

يمة الولد

تسرب شعاع الشمسِ إلى عينيْ ترفة من النوافذ التي لم تُكسَ بالزجاج بعدُ، قامت وهي تعلم أن الشروق مرت عليه ساعة أو أقل، فرج يستغرق في نومه، قامت تتأمل صندوقها، فتحته بعد ذلك وأخذت تعدُ ما به من مصوغات ومال، فكرت، ماذا لو اشترت البيت من عمها محمود، وتركته ذخرًا للزمن؟ ثم تبين لها مدى غباء الفكرة، *عليها أن تهرب اليوم وإلا سيأتي غانم باكرًا يزعقُ مثل حيوان مفترس*. هذا ما يعتمل في نفسها وهو الصواب برأيها. خرجت من البيت لشراء بعض حاجيات الإفطار، يشرق قلبها عندما تعصف بأنفها رائحة النهر، تتعجب من نفسها، تريد أن تتغرب وتسافر ولا تعرف أين الوجهة، ثم فجأة وهي تعبر بيوتات أعمامها وتحاذي النهر وقبل أن تصل إلى الدكان روادها خاطر أنها لن تسافر هذا اليوم، رغم الإصرار، الأفكار التي وضعتها، تظن أنها معلقة على حافة الأشياء، رغم المال الذي تعتقد أنه يشتري أكبر شيء، الطرق، البيوتات، الأمان، حتى الضمائر، لولا الإصرار الذي في عين

أم فرج لسفحت لها المال في سبيله. تخطو على حواف النهر فتحيط بها خفة طفولية، أول ما أتت بعد مقتل أمها وتجرُّع المأساة بصورةٍ رهيبة، في عمرها، أدركت أن شيئًا حصل، عندما ترى أمها تجوب الطرقات، أخوالها يضربون أختهم خشيةً من الفضيحة، سماعها زعيق أمها للمرة الأخيرة من وراء الجدران، صرخة خالها ثم صمت أمها الأبدي، وكيف تسللت من بيت خالها لتراهم يدخلون أمها، كتلة الصوت والزعيق وقد تحولت إلى سكوتٍ نازف، تجرعت في أعماقها وهي ترى النساء يحملن تلك الكتلة اللحمية إلى الداخل ويخرجنها بعد ساعة محملة على نعشٍ ويسلمنه إلى الرجال ليغيب النعش عند أول منعطف، ارتعشت، بالت على نفسها من شدة الخوف الذي لم تبن ملامحه وفي الليل، وقبل أن تنتهي حفلة الرعب تلك والبكاء والصراخ والعراك الذي ينشب هنا وهناك أتت عمتها عاتكة، وكانت ذات بأسٍ، صرخت، زجرت، لعنت، أرعدت، ثم أخذتها من يديها، امرأة غريبة تتلقفها بلهفةٍ كما هي، من دون ملابسها وأغراضها، تسكنها معها في هذا البيت، وتتحول أمًّا وأبًا، تعلمها كل شيء، حتى صارت يدها، فعرفت الطريق إلى الدكان، تخرجُ من بيت عاتكة، تنعطف يمينًا، حتى إذا تباعدت البيوتات تمشي بمحاذاة النهر فترى الدكان منتصبًا مثل شجرة تتحدى الزمن. تأتي منه بالبيض والزيتون والتمر، وهو طعامُ عاتكة المفضل، فهي لم تكن تجني مواشيَ أو دجاجًا، بحكم عملها كقابلة، لكنها تذكر أنها تمتلك المال، ليس من مهنتها وعملها، إنما من بشارات الصبيان التي تزفها. وصلت ترفة إلى الدكان اشترت بيضًا وتمرًا وزيتونًا وخبزًا، ثم عادت بخفةٍ، تميل نحو النهر، تداعب حوافه فتعود إلى زمنٍ مضى، لأول لمسة لهذا المد العظيم، خافته أول مرة، وترفض الخروج وحدها، بعد ألفته، صارت تنتظر عاتكة وهي ترسلها إلى الدكان، تنعطف عن البيوت، فيغويها المد الهائل، تطيل حتى تصل إلى الدكان ثم تعود مبللة الأطراف وقد تأخرت، تضجر عاتكة، تعرف سبب التأخر: «*لم يبقَ إلا أن أشتري بيتًا بعيدًا عن النهر*»! تقول وهي تضع البيض في صفيحة القلي. تعود فترى فرج يتثاءب، تخرج بقايا مطبخ عاتكة لم يدركه بعد البناء

والتحوير صفيحة القلي، تشعل النار وتشرع في غناء كانت تغنيه عاتكة لها وفي النهاية تسخر من قائلها:

«يمه الولد فدوه الولد..
يسوه البنات بلا عدد..
يا أم الولد نامي رغد..
بين الهنا وبين السعد..
باجر يشب مثل الأسد..
ويصير الج عون وسند..»

ثم تقبل ترفة بعد الغناء وتهمس: «كذب.. كذب.. كذب.. *البنت تسوى الولد*».

تضع الزيتون والتمر والبيض المقلي أمامه، تقول له: «كُل ولا تنس جدة عاتكة من الدعاء».

- عاتكة أمك؟

- عمتي.. الله يرحمها...

وبينما بدأ فرج يقضم الخبز سُمع أزيز سيارات الشرطة، قامت بذعر، اقتربت إلى باب المطبخ ونظرت، لم ترَ شيئًا واضحًا، صعدت على كرسي عندها فرأت ثلاث سيارات شرطة تقف قرب الباب وتسأل عمها محمود الذي أشار إلى بيت عاتكة، بسرعة ارتدت عباءتها وحملت صندوق الذهب والمال ومسكت فرج من يديه وصعدت إلى السطح بينما الشرطة دخلت المطبخ بوغتت أن البيت من ثلاثة طوابق، للطابق الثاني أسوار عالية لا تستطيع القفز منها إلى السطح الآخر كما فكرت، بل استحالة، يد عمها العجوز غيرت شكل البيت القديم، فلمحت سلمًا إلى سطح الطابق الثالث، سلمًا حديديًّا مرعبًا،

بلا كلل نزعت العباءة، شدتها على خصرها وأخرجت الذهب والمال ووضعته عند الخصر، أمرت فرج بالصعود فصعد مصعوقًا وهي من خلفه، فذعرت لما رأت كل الجوانب مشرعة بلا حائط، لكن لا بيت جنبهم من ثلاثة طوابق، وفي ظهر البيت النهر، فكرت بالقفز إلى النهر، هناك أمل بالنجاة، لكن فرج، كيف العمل؟ بينما تفكر بعصبية صعد الشرطي الأول وتبعه الثاني والثالث، بغتة رأت أمامها ثلاث بنادق موجهة نحوها ثم صعد الدكتور محمد، فقال الشرطي: «مهلا.. انتظري.. لن نؤذيك...».

جذبت فرج بقوةٍ، رجعت حتى وصلت إلى الحافة وأي حركة تسقط في النهر من هذا العلو الشاهق، فقالت بعصبية: «أي حركة أقفز أنا وإياه، والله.. لا تقترب...».

لم تتحمل هادية أن تبقى في الطابق الثاني، صعدت بغفلة من باقي الشرطة، لما رأت ولدها على الحافة صرخت، أراد فرج التقدم فكمشته ترفة: «لن أعطيه.. مستحيل... أنت لا تستحقينه. إنه ولدي أنا».

يبكي فرج، وتبكي هادية التي تقدمت بلا مبالاة: «هذا ابني».

- أنت خائنة، تزوجت ولم تنتظري.
- ...
- أي... أنا الأم الحقيقية، أنا التي أستحق فرج، أحببته، ماذا قدمتِ أنت؟ ارجعي وإلا قفزتُ معه.
- حرام عليك.
- الحرام أن أعيش محرومة، حلال لأنني أعرف قيمة الأولاد.

لحظة مشحونة، تتابع نظراتها بكثير من الخوف والجزع، بالبنادق الموجهة والأم الباكية، ثم صعد غانم: «ترفة.. أحبك...».

- اخرس.. جبان.

اقتربت هادية حتى لم يبق بينها وبين ترفة وفرج سوى شبر وجلست أرضًا، مدت يديها تتلمس يد فرج في لحظة جعلت الشرطة يبكون.

زعقت ترفة بجنون: «ارجعي..».

وفجأة مسحت على رأس فرج الله بحنو، ترددت دقائق، الألم يعتصر في داخلها، ثم بلا مقدمات تركت فرج يقفز في حضن أمه الدامعة وقبل أن تتقدم الشرطة شبرًا قفزت ترفة في النهر مثل طير ذبيح، كانت تهبطُ وترى أعين الشرطة تلاحقها وتشاهد سقوطها وهي على حالٍ من الصمت واليأسِ إلا من دمع ينز مثل جرحٍ عتيق. تصطدم بالماء فلا تقاوم ولا تنتظر من يفعل ذلك، لن يلحقوا على أيِّ حال. يهبط جسدها نحو القاع بيسر واستسلام، تختار الموت في عمق النهر حيث لا تربة خانقة ولا رطوبة ولا ديدان، تختار النهر محل انكسار الضوء والرمال الطريقة والأسماك لتكون طعامًا، تتقاسمها الأسماك بفرح عميم، يليق بالمخذولين. هكذا تفكر حتى غابت عنها صورة السطح، ثم الشمس، فالضوء، فسكون أبدي.

-49-

أفراح كبيسة

تحتفل كبيسة هذا اليوم بمناسباتٍ عدة، من غير أن تنفرد واحدةٌ عن الأخرى، ما دام «آل وعد» يشكلون ركنًا أساسيًّا في هذه البلدة الوادعة، صحيح أن الأحزان لم تترك منازلهم، لكنهم ينامون، ويغرقون في النوم عميقًا ما دام الرجل منهم يخرج مع طلوع الضوء أو قبل ذلك بقليل ولا يعود إلا والدنيا قد اسودت، يأكلون ثم يصلون العشاء، قد يتزاورون أو يقصدون عرسًا أو عزاءً، فدائمًا هناك عرس في بلدتهم ومأتم، إن وجدوا في أجسادهم قوةً وإلا ناموا مكتفين بمبلغٍ من المال يدفعون صباحية العرس، أو مساء ثالث أيام العزاء. أما اليوم فقد عاد الدكتور محمد وعد من غربة طويلة، فيحتفلون به على عادة أبيه الشيخ وعد الله، وعاد فرج بعد رحلة ضياعٍ شاقةٍ، وسيتزوج المختار بشكلٍ رسمي هادية بنت وعد الله. أفراح آل وعد والمختار بدأ منذ الصباح الباكر. فقد وصلوا ليلًا مثل جثثٍ، ناموا على وجوههم، بعد يومين شاقين، عادوا من الصقلاوية وفرج في أحضانهم، لكن لم يفرحوا، فقد بكى

فرج عندما انتبه إلى ترفة، وهي تغوص عميقًا ولا أحد ينجدها، بكى وهو يرى من تحن عليه تنتهي بغتة مثل حلمٍ، غانم الذي صار يمزق ثيابه ويريد القفز وراءها لولا الشرطة التي مسكته. عادوا وفرج يرتجف مثل محموم، يتكئ على هادية، يتمسك بثيابه بصعوبةٍ بقوة ويرتجف باكيًا. وصلوا إلى مركز الشرطة، أخذوا غانم إلى السجن والذي سيحكم عليه فيما بعد بالسجن خمس سنوات، مع ملا عادل الذي أعادوا أقواله وأحالوه إلى المحكمة التي أطلقت سراحه بعد أيامٍ قليلة. ثم عادوا بوجوه شاحبة إلى بيت خلف. خافت هادية على فرج، كان في طور صدمةٍ لا تنسى. اتصل الدكتور حمد العاني، أبلغ الدكتور محمد بوصول رسالة من نيويورك باسم «يحيى الحمصي»، كاد يطير من الفرح، فتحها حمد من عنده وقرأها على أذنيه في السماعة:

«العزيز الدكتور محمد وعد الله الكبيسي..

بسرور بالغ أزف إليك نبأ موافقة المستشفى هنا على طلب العمل الذي بعثته في الفاكس منذ شهرين، ويسرنا أن تأتي إلينا وفق راتبٍ شهري لم تكن تحلم به، لم يبق أمامك إلا أن تنجز مع غصون عملكما في بيروت وتلتحقا بالقريب العاجل. وفقكما الله لمحبته ورضوانه.

الدكتور يحيى محيي الحمصي

نيويورك 1972/9/3م».

عمل كثير عليه إنجازه في بيروت لكن قبل كل شيء عليه أن يرى أمه وأهله. في اليوم التالي توادعوا، خلف عبد المطلب والشيخ علي أكثر من تأثر في تلك اللحظات، عانقوا المختار والدمع في أعينهم، تُرى من قال لهم إنها المرة الأخيرة وإن المختار سيعود إلى كبيسة ولن يرى الفلوجة ثانية؟ أي قوة

نبعت حتى بكوا عليه، ولشدة حبهم سيأوون فرج وأمه في تغريبة آل وعدٍ الثانية بعد سبع وعشرين سنةٍ وثلاثة أيام وساعتين بالضبط وبتحدٍّ ورضا.

في الطريق وقفوا عند قبر الشيخ وعد على حافة الطريق. ذرفوا الدموع، دموع ملتاعة عابقة بالندم، ماذا ينفع وقتها، في تلك اللحظات الحرجة، اعتذار، لوعة، ألم، ندم؟ في النهاية، لا شيء يعوضُ الفقد، ومما جعل ذلك الفقد مرًّا هو الموت وحيدًا، غرباء، مثل لحظة ميلاد في القرية المنسية، مثل أي شيء عابر. كان عليهم أن يتابعوا نحو البلدة، كبيسة.

***

منذ لحظات الفجر الأولى يقفُ منير القصاب ومعه صبييه على باب بيت المختار، كان متأهبًا، النطاق حول خصره محملًا بسكاكين خمسة ومبرد، والصبيان من خلفه يحملان سواطير عدة.

خرج المختار متثائبًا: «عم المختار كم خروفًا نذبح؟».

- خروف؟ قل كم ثورًا!
- معقول؟
- يا خال منير، تعرف كم نفرًا سيأتي؟ كبيسة على بكرة أبيها، هيت، راوه، عانة، كبراء من كل العراق، وتقول كم خروفًا!
- ماذا نذبح؟
- عجلان، وبقرة، وعشرون خروفًا، تركتها في الحظيرة الجوانية، ادخلوا.
- أتمزح؟

فقال بصرامة: «أسرع يا منير بلا لغوٍ، ساعتان وأريد اللحم جاهز!».

يدخل منير متهيبًا لكن المختار لم يكن بمزاج يناقش، يقول لنفسه: سعادتان دفقة واحدة، هادية، وأخوها الذي سيغادر إلى الأبد. يعود لنفسه، يتذكر الإعانة الإلهية التي تطوقه، يحمد الله على كل شيء.

-50-

أرض الميلاد والألم

في المساء يعلو الرصاص ملعلعًا في الآفاق بعد أن حلف المختار أن الليلة لا نوم فيها. استحال الليل نهارًا سرمديًّا، استبد بالحضورِ مدُ فرحٍ لم يجربوه من قبل، أحسوا باللذة، لذة الحياة، وأحسوا بمعنى أن يبتسم الكون ويجعلهم في خانة السعداء. يرقصون من غير شعورٍ. يتجمع الرجال ليشكلوا حلقة دائرية كبيرة، وأمامهم رجل يحمل طبلًا كبيرًا، يدق على الطبل بمطرقته فيصدح صوت حمودي الغزوان بأغانٍ عن الجميلات المتمنعات، عن العشاق، فيتحول الرجال المتحلقين إلى ثعبان مذعور، يتحرك ويقفز بحركةٍ واحدةٍ. والمختار يستقبل المباركين وبين الفينة والأخرى يطلق النار في الهواء من مسدسه. أما هادية فقد عادت ساحرة مستلة من الحكايات، تتجمع النساء حولها، يدهشن من الحزن الذي زال دفعة واحدةً وتزينت بهذه الطريقة، كيف تجمعت السنين وانصهرت حتى بدت في تلك الليلة مثل كومة زهرٍ؟

يمضي الليل نحو آخره، يتعب الحضور، فيغادرون واحدًا تلو الآخر، تخبو الأصوات في المنازل، وتستسلم الأجساد التعبى والفرحة إلى نومٍ عميق، إلا آل وعدٍ، في تلك الليل لم يناموا، دخل المختار على هادية، وعندما أغلق الباب أحس بأنه امتلك سرًا غامضًا من أسرار هذا العالم. قبل الشروق بقليل السيارة تقطع الفيافي الطويلة بالدكتور محمد نحو غربةٍ طويلةٍ هذه المرة، يودع البلاد الممتدة بنظره في طريقه إلى مطار بغداد، يعلم أن غيبته طويلة ممتدة، وحتمية مثل قدرٍ، تدمع عينه عندما يصلُ قرب قبر الشيخ وعد، وكلما اقترب هبطت أكثر، تحاصره الدموع هذا إذا وصله واجتاز القبر بكى بمرارة، تنطوي المسافات ويدنو المطار، ورحلة تطفو أمامه ومغادرة هذه البلاد بلا عودة، سينسى كل أبيات الشعر التي تعلمها في المدرسة، ومعها سيجرف الحنين، الركض في البساتين وتحذير جدته الصارم.

أما فرج فلم ينم ليلته، كأنه عائد من عالم آخر، الأحضان الدافئة والانتظار تركها دفقة واحدة وعاد إلى بلدته التي لا تملك رصيدًا من الانتظار، إنما رتابة تتشرَّبها حتى الثمالة، تنثال الصور في رأسه، ترفة، التي تقبع الآن في أرضٍ طريةٍ ويغمر جسدها الماء والزهر، وقد استل من خصرها المال والذهب، غانم نعيم الذي يلبثُ في الظلمات متألمًا، وهو، من له؟ يفز من فراشه قرب جدته، يشعر أن الكل غادروا، ترفة، أمه، غانم، خاله محمد، يخرج من البيت، يعبر البيوتات المتراصفة، يصعد تلًّا يطلُ على الطريق العام، ومن جهة أخرى يطل على بساتين وبيوتات البلدة، فيهبط نحو البساتين يشقها برتابة، يدوس على زهرةٍ هنا ونبتة هناك، يشعر أنه حزين، مقهور، يشتهي البكاء ولكن لا يبكي، يمشي بلا طريق والشمس ترتفع رويدًا، وكلما عبر بستانًا دخل آخر، نظر إلى الشمس وقاس ارتفاعها فأدرك أن جدته ستستيقظ، وسترتاب إذا لم تجده في فراشه، لا مناص من العودة، استدار عائدًا، إلى المنازل الناعسة، وإلى الأرض التي لا تنفك عن الحزن والرتابة التي كرهها تلك اللحظة، لكن لا مهرب من أرض الميلاد والألم.

عصير
الكتب